تاريخ اللغويات

فيفن لو Vivien Law

١. اللغويات وتاريخها

غالباً ما يعتقد أن تاريخ اللغويات يمثل نظام معرفة حديث للغاية لأن اللغويات نفسها لم تثبت دعائمها في شكلها الحالي إلا منذ بضعة عقود خلت. إلا أن الناس ما يزالون يدرسون اللغة منذ اختراع الكتابة، وقبل ذلك بكثير بدون أدنى شك. وكما هو الحال في العديد من العلوم الأخرى ، فإن استخدام اللغة، ودراستها لأغراض عملية بعد ذلك ، قد سبق دراستها العميقة لأغراض أكاديمية. ففي الهند القديمة، على سبيل المثال، أدت الحاجة للحفاظ على اللفظ الصحيح للنصوص الدينية حياً إلى دراسة الصوتيات النطقية، في حين نجد في الإغريقية القديمة، أن الحاجة لمفردات تقنية ودلالية لاستخدامها في التحليل المنطقي للقضايا المنطقية أدت إلى ظهور نظام من أقسام الكلام طُّور في نهاية المطاف إلى أبعد من الاحتياجات الآنية لأولئك الفلاسفة الذين شعروا في بداية المطاف بحاجة ماسة إلى أقسام الكلام تلك. وما التدريب على فن الخطابة في روما، والحفاظ على النصوص الدينية في اليهودية، وانتشار الدينّين المبشرين الجديدين المسيحية والإسلام، وتوطيد أركان ثقافات أدبية محلية في دول أوروبا في عصر النهضة إلا سياقات أصبحت اللغة فيها - مجرد أداة في بداية الأمر -محط دراسة مركزة. ولتكوين صورةٍ شاملة تبين أسباب دراسة اللغة في الماضي وكيفيتها، يجب الأخذ بعين الاعتبار هذه التراثات كلها- وكثير غيرها- بغض النظر عن مدى اختلافها أو اختلاف معانيها عما نعنيه باللغويات اليوم. فلكلٍ تراث مؤرخوه المهتمون به: فهناك باشر Bacher حول دراسة اللغة بين اليهود، وسانديز Sandys حول فقه اللغة الكلاسيكي، و ي. ج دوبسن E.J. (1957) Dobson حول الأعمال المبكرة المهتمة بالنطق الإنجليزي، و هـ. بيدرسن H. (1931) Pedersen حول فقه اللغة المقارن وكثير غيرهم. ومثلما أصبحت اللغويات في المعنى ما بعد السوسيري تُفهم على أنها نظام معرفة يتميز عن تيار دراسة اللغة الأساسي في القرن التاسع

عشر- المتمثل في فقه اللغة المقارن والتاريخي – فكذلك وجدت مؤرخيها. ولكن في حين ركزَّ معظم المؤرخين الأوائل عمداً على دراسة لغة بمفردها أو التراث اللغوي الخاص بأمة واحدة في أغلب الأحيان، فإن المؤرخين الجدد عرفوا حقلهم بشكلٍ أوسع. فإن كانت اللغويات تعني دراسة اللغة في كافة مظاهرها، فإنهم يرون أن على تاريخ اللغويات أن يضم كافة المدارس الماضية في دراسة اللغة بغض النظر عن المناهج/الأساليب التي اتبعت أو النتائج التي تم الحصول عليها. ويلقي هذا التصور الجديد بعبء ثقيل على كاهل الأكاديمي الذي يعمل بمفرده والذي يكون في الحالة المثالية متحدثاً مفوهاً (ملّما) بكافة فروع التاريخ الثقافي والفكري بالإضافة لكافة مظاهر اللغويات الحديثة. أما على أرضِ الواقع، فإن معظم الباحثين ركزوا على جانب محدود من البحث نسبياً أو التزموا بمدرسة أو مبدأ قريب من ذلك. إن المناهج الحديثة في دراسة التاريخ اللغوي – والتي تم التخلي عن العديد منها في فروع التاريخ الفكري الأخرى – تضم التالي:

1- التاريخ التعديلي ("البلاطي" أو الإصلاحي"): ويتمثل في وجهة نظر المطلّع نفسه على تطور المدرسة التي ينتمي هو إليها وأهميتها التاريخية. ويعرض هذا المنهج لمحات قيمة للغاية حول فهم فرد مشارك في تشكيل حركة جديدة ونموها ؛ ولكن غالباً ما يغض الطرف أو يشوه سمعة إسهام الأكاديميين الآخرين – السابقين والمعاصرين – في تطور مدرسته الخاصة وتطور الموضوع بشكلٍ أعم. وتضم الأمثلة من هذا النوع الفصل الأول من كتاب بلومفيلد Bloomfield اللغة (إصدار هولت، راينهارت وونستن، نيويورك – 1933)، و ف .ج. نيوماير F.J. Newmeyer: النظرية اللغوية في أمريكا – إصدار المطبعة الأكاديمية – نيويورك، 1980) .

٢- التاريخ التبشيري: وهو البحث بطريقة مباشرةٍ أو غير مباشرة عن رواد نظرية حديثة أو منهج حديث . وعلى الرغم من أن هذا النوع من التاريخ يقدم إحساساً طيباً حول المنظور العام بالنسبة لأولئك المهتمين في تطوير نظرية جديدة، إلا أنه يعاني من وجهة نظر المؤرخ، من وكسة تشويه الماضي، وعزل مفكرين على حساب مفكرين آخرين ربما كانوا في وقتهم أكثر أهمية وتأثيراً . قد

يؤدي هذا النوع من التاريخ إلى تأويل ينطوي على مفارقـات تاريخيـة لمعتقـدات الماضي، حيث يُنفخ فيها روح أفكار جديدة أو معاصرة لم تصغ وقتها بشكلٍ واضح أبداً. وعيّنة ناجحة ومؤثرة للغاية من هذا النوع هي كتـاب تـشومكي اللغويـات الديكارتية. إصدار (هاربر ورو، نيويورك، 1966).

٣- التاريخ التقعيدي (التنظيمي): وهو البحث في تطور فرع خاص من اللغويات الحديثة .وهو مفيد بدون أدنى شك في توضيح الحاضر –أي: توضـيح كيفيـة وصول نظام معرفة حديث إلى حالته الراهنة - إلا أنه يعاني من وكسة فرض تراكيب عقلية معاصرة - فئات مثل "الـصوتيات"،و "اللغويـات التاريخيـة"، و"الجـذر، و"الفونيم" على الماضي. ربما يميل الأكاديميون لكتابة تاريخ اللغويات وفق شروط أو متطلبات المفاهيم والفئات المعاصرة، وربما فشلوا في فهم الفئات التي فكر المفكـرون الأوائل من خلالها؛ ونتيجة لذلك، ربما قللوا من الأهداف الحقيقية للغويين الأوائـل. فعلى سبيل المثال، لا يتناظر نظام الصوتيات الحديثة إلا جزئياً مـع نظريـة Littera القديمة. وينتج عن انتقاد مفكري عصر ما قبل النهضة لإخفاقهم في تطـوير علـم صوتيات متكامل وفي الوقت ذاته، غضُ الطرف عن تلك الفروع من نظرية Littera التي لا تتناظر مع أي شيء من نظام الصوتيات الحديثة ،صورة غير متوازنـة حـول الماضي. إن المقدمات التاريخية المختصرة حول تطور الموضوع والتي عادة ما تُـستهل بها الكتب المنهجية هي من هذا النموذج أو النوع.

٤- التاريخ السياقي: ويتمثل في دراسة الأفكار اللغوية الماضية وفق سياقها التاريخي والفكري. إن مؤرخ اللغويات الملمَّ بالظروف المحيطة التاريخية منها والثقافية والفكرية التي نشأ فيها مذهب معين هو في موقع يمكّنه من فهم طبيعة هذا المـذهب الفكـري وأهمّيته في وقته أو عصره. وإذا ما ألَمَّ المؤرخ بأولويات الكتّاب الأوائل ونظريـاتهم فمن غير المحتمل أن يصمَ أفكار الماضي بالتناقض أو يدين الاهتمامات الماضية بأنها عديمة الجدوى. وعلى مثل هذا المؤرخ ألا يكون ضليعاً في بعض جوانب اللغويـات الحديثة فحسب، ولكن عليه أن يكون ملّماً أيضاً بالتاريخ الثقافي للحقبـة المختـارة

وبالأنظمة المعرفية الوثيقة الصلة بها مثل: علم الكتابة، وتـــاريخ العلـــوم واللغـــات الضرورية. ويمثل عمل روي أندرو ملر (Roy Andrew Miller (1975-1976)حول التراث اللغوي للتيبت والشرق الأقصى عملاً لامعاً من هذا النوع.

إن نظام المعرفة التاريخي الجديد، ودراسة أنمـــاط الفكـــر المختلفـــة،و التـــصورات والافتراضات التي تميز حقباً مختلفة وشعوباً مختلفة أيضاً قد جلـــب بـــصائر جديـــدة لتـــاريخ اللغويات. حيث أن مؤرخي اللغويات مستعدون بشكلٍ متزايد للنظر إلى الماضي بعين متعاطفة، ومستعدون لقبول تلك الأفكار التي تبدو لنا غريبة الآن بأنها فتحت آفاقاً ممتـــازة في وقتـــها. ولفهمها وتقدير إسهامها في الثقافة الغربية، علينا أن نطرح جانباً بعض الأفكار الـــتي تقـــع في جوهر وجهة نظر القرن العشرين العالمية ونحاول عوضاً عن ذلك أن نتقمص بعـــض عـــادات تفكير أناس من زمنٍ آخر. ولقد طُورت جوانب عدة من هذا المنهج الصعب المـــراس للغايـــة للتأريخ ضمن تراثات قومية مختلفة. فقد مال العلماء الأمريكيون والإنجليز إلى تأكيـــد أهميـــة الخلفية التاريخية والثقافية - الاجتماعية، في حين ركّز العمل الفرنسي بشكلٍ أكبر على الأفكار اللغوية في سياق التاريخ الفكري عامة. وأظهر العمل الحديث للباحثين الناطقين بالألمانية رغبة في تطبيق بصائر التحليل الفلسفي على تاريخ اللغويات. فكل منهج يحتاج لمنهج الآخرين: إنها مناهج متكاملة وليست متنافسة.

لقد تقدمت فكرة قوننة نظام المعرفة الخاص بتاريخ اللغويات بشكلٍ أسرع في فرنسا والعالم الناطق بالإنجليزية: ففي باريس، أسس أعضاء فريق CNRS المختصون بالموضوع جمعية عالمية تحت اسم : Socitete pour l' Histoire Epistemologie des Sciences du Language وكذلك دوريتها Historie Epistemologie Language عام ١٩٧٨ .وفي كنـــدا، يُـــشرف ي.ف.ك كـــورنر E.F. Korener علـــى دوريـــة Historiographia Linguistica (1974 -) وسلسلات عدة أخرى من المقالات حول الموضوع ؛ وتجمع المؤتمرات الدوليّة الدّوريـــة الـــتي تنعقد كل ثلاث سنوات حول تاريخ علوم اللغة التي بدأها كورنر 1978، عدة مئـــات مـــن العلماء لمناقشة آخر مستجدات البحث، كما تقوم بذلك – ولكن علـــى مـــستوى أصـــغر – المؤتمرات السنوية التي تعقدها جمعية هنري سوييت حول تاريخ الأفكار اللغوية التي تأخذ مـــن

الأرض البريطانية مقراً لها منذ عام (1984 -). إن تأسيس كرسي أستاذ متخصص في تــاريخ اللغويات في جامعة كمبريدج (1984) يكرس اعترافاً صريحاً بالموضوع في بريطانيــا ، إلا أن أعداد الباحثين الكبيرة من بريطانيا وشمال أمريكا التي تحضر الاجتماعات بشكلٍ دوري وتنشر في الحقل لخير دليل حول القاعدة العريضة والاهتمام المتزايد في الحقل. ويتزايد الاهتمام بالحقل بشكلٍ مطرد في إيطاليا، وإسبانيا والاتحاد السوفيتي، في حين يقدم باحثون منفــردون أعمــالاً ممتازة في أصقاع أخرى من العالم .

٢ - التراث الغربي حتى عام ١٩٠٠

تبدأ اللغويات الغربية تاريخها المسجل في أثينا: وكان أفلاطون أولّ مفكر أوربي فكرّ بالمــسائل الأساسية في اللغة. وتمثل المواضيع التي عرضها في أعماله مسائل محورية، وهي بمثابة جــدول أعمال عاد إليه التراث الأوروبي بقصد أو من غير قصد مرات ومرات عبر مسيرة تطوره. وعلى الرغم من أن العديد من الأفكار قد استعيرت من مصادر خارجية - من التراث اليهــودي في الألف الأولى بعد الميلاد، ومن لغويات القرون الوسطى للعبرية والعربية خلال عصر النهــضة، ومن الهند حوالي عام ١٨٠٠، هذا إذا ما اقتصرنا على ذكر المصادر الأهم فقط، إلا أن للتراث الغربي نمطه الواضح الخاص من التطور. حيث يمكن تقفي أثار مزايا هامة لطريقة متميزة مــن التفكير، ونظرة عالمية مميزة في الآثار البادية للعيان من اللغويات الغربية ، بدلاً من نتاج عــابر للمناخ أو الظروف المحيطة في معظم فروع البحث الفكري: وأكثر ما يبدو ذلك واضــحاً في العلوم الطبيعية ولكن أيضاً في الفلسفة، وعلم الكونيات ودراسة الإنسان. ولذلك نتائج مهمة لسردنا هنا وللتاريخ اللغوي عامة، وعلى المستويين: المكاني والزماني .

فمن العبث أن نحاول ربط كل التراثات اللغوية الهامة في سلسلة تاريخية واحدة، على الصعيد الجغرافي، حيث نقفز من الهند إلى الصين فالإغريق وروما، إلى الشعوب السامية، ومن ثم ثانية إلى الغرب. فلكل تراث تاريخه الخاص به، ويمكن شرحه فقط ضمن شروطه الثقافيــة وأنماط تفكيره. ولكل إسهامه المميز به في فهم الإنــسان للغــة. إلا أن لمثــل تلــك القــصة الشاملة"للتاريخ العالمي للغويات" أثراً مشوهاً على أية حال، فوضع فصل حول اللغويــات في الهند القديمة قبل واحد حول اللغويات في الإغريق سوف يوحي بالتأكيد إما أن العمل الهنــدي

كان سلف التراث الإغريقي - الروماني، أو أن التراث الأخير يَخلف الأول، حيث تمثل كـــل من الحالتين تشويهياً تاريخياً رهيباً. فلقد تطور التراثان بمعزل عن بعضهما البعض، ولا يمكن ربطهما بعلاقة تاريخية إلا في طريقة مصطنّعة. لقد استمرا في التطور مع التراثـــات العظيمـــة الأخرى بشكلٍ متواز حتى يومنا هذا. وبشكلٍ مثالي، يجب أن تعطى التراثات العظيمة حيـــزاً متساوياً في بحث حول تاريخ اللغويات. أما في الواقع، ففي دراسة مختصرة يكتبها غربي لقراء غربيين، يجب أن يتلقى التراث الغربي القسط الأهم من الاهتمام والبروز ؛ ولكن لإعادة التوازن قليلاً، فإننا سنخصص التراثات الرئيسية الثلاثة غير الأوروبية - السامية، والهندية، والـــصينية، بأقسام منفصلة بها.

وبالمقابل، فعلى الرغم من أن بعض طرق التفكير تبقى سمة تراث بعينه لفترة طويلـــة من الزمن على المستوى الزمني، فإن تراثات أخرى تتعاقب بشكلٍ سريع بتـــأثير تراكمـــي أو دائري. والتراث الغربي موسوم بتغير رئيسي في الاتجاه لا يمكن إلغاؤه حدث في القرن الخامس عشر. حيث غيرت اللغويات الغربية سمتها جذرياً في عصر النهضة ، مثلما حـــدث بالنـــسبة لكافة فروع النشاط الفكري الأخرى. وبالمقابل، فإن "الانتقال" من العصور القديمة إلى العصور الوسطى ممتد للغاية ومن الصعب تحديده لدرجة أنه يمكن للمرء أن يسأل إن كـــان للتقـــسيم الزماني أي حقيقة داخلية جوهرية ؛ وغالباً ما يعتبر تقسيم اللغويات إلى لغويات ما قبل النهضة ولغويات ما بعد النهضة تقسيماً مناسباً. أما التقسيمات الفرعية فهي ضرورية بالنسبة للقارئ، ولكنها غالباً ما تكون اعتباطية كاعتباطية الأسماء التي تعطى لها. تشكل اللغويـــات الرومانيـــة واليونانية استمرارية مع العصور الوسطى، حيث بنى الرومان على المبادرات اليونانية وطوروها قليلاً، في حين درس علماء القرون الوسطى النسخة الرومانية للتراث اللغوي القديم وهضموها وحولوها. وهناك جوانب من فكر ما قبل النهضة، وبشكلٍ ملحوظٍ علم أصـــول الكلمـــات ونظرية Littera، يمكن معالجتها والتعامل معها بسهولة أكبر إذا ما درست أفكـــار العـــصور القديمة والعصور الوسطى مجتمعّة ؛ أما بالنسبة للمواضيع الأخرى، فإن النقاش التاريخي التعاقبي سوف يزودنا بإطار عمل مناسب.

٢. ١ الإغريق: اللغة بوصفها وسيلة لفهم الحقيقة

يبدأ تاريخ اللغويات الغربية المدون بمجابهة بين وجهتي نظر متعارضتين أساساً حول اللغة: تعتبر الأولى اللغة مصدراً للمعرفة في حين تعتبر الثانية اللغة مجرد وسيلة للتواصل. هل هناك صلة أساسية ومباشرة بين اللغة والحقيقة،سواء أكانت روحية أو مادية، أم أنها اعتباطية بشكلٍ كامل ؟ والنتائج هامة للغاية: فلو احتوت اللغة الحقيقة بطريقة أو بأخرى أو عكستها ، عندئذ، ستمثل دراسة اللغة طريقاً ممكناً لمعرفة الحقيقة. ولكن إن كانت اعتباطية أو عشوائية، عندئذ، لن نكسب من دراسة اللغة أي شيء ذا أهمية بالغة: وسيكون هدف اللغويات هومجرد فهم اللغة ولا شيء أكثر من ذلك. وعلى الرغم من أن ذلك يمثل وجهة نظر تيار اللغويات الأساسي اليوم، وهو الافتراض الضمني في كثير من الحالات، إلا أن ذلك لا يمثل أمراً مسلما به دائماً . إن أقدم نص غربي حول اللغة، كراتيلوس Cratylus، لأفلاطون يخاطب هذا السؤال بعينه.

كان جو دولة مدينة أثينا في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد جواً مفعماً بطرح الأسئلة العميقة. وفي التحري لاكتشاف الأسباب التي تكمن تحت بيئة الإنسان الكونية والفيزيائية، ميَّز الفلاسفة قبل سقراط قوتين أساسيتين: الطبيعة Phusis ،وهي القوة الغاشمة التي تحكم العالم المرئي ؛ و الاعتقاد nomos وهوعادة أو قانون سنته القوة الإلهية أو الإنسان. طرحت الأدوار النسبية للطبيعة والاعتقاد (أو العرف thesis) في أوجه الحياة الإنسانية المتعددة مسائل صعبة أمام الفلاسفة منها: هل تنشأ الدول بالضرورة أم من خلال العادات الإنسانية ؟ وهل القوانين الأخلاقية ضرورة طبيعية أم مجرد أعراف وتقاليد ؟ وفي مجال اللغة، فقد سأل الإغريق فيما إذا كانت العلاقة بين الكلمات وما تعنيه قد نشأت بسبب الطبيعة، أو قد فرضتها الأعراف والتقاليد. كان هناك جانبان للسؤال: يتعلق الأول، بطبيعة العلاقة الحالية بين الكلمات ومدلولاتها، ويتعلق الثاني بكيفية نشوء تلك العلاقة أي، أصل الكلمات.

وقد كرسّ أفلاطون (429-347 قبل الميلاد) أحد حواراته، "الكراتيلوس"، لهذه المسألة. ومن بين المتكلمين الثلاثة الذين يصورهم، يصر كراتيلوس أن اللغة تعكس العالم بدقة ؛ بينما يدافع هيرموجينس Hermogenes عن الموقف المعاكس في أن اللغة عشوائية أو اعتباطية ؛ في حين يمثل سقراط موقفاً وسطاً موضحاً نقاط الضعف والقوة في مناقشاتهما، ويقودهم في

نهاية المطاف إلى حل وسط. ويرفض سقراط ادعاء هيرمـــوجينس الافتتـــاحي في أن الأسمـــاء عشوائية بشكلٍ كامل ويمكن فرضها وفق الرغبة، ويوضح سقراط أن الكلمات هـــي أدوات: فكما لا يمكننا استخدام مكوك مشوه للحياكة، فكذلك يجب أن يكون للأسماء صفات تجعلها مناسبة للاستخدام. ويطلب سقراط من هيرموجينس أن يفترض افتراضين يبقيان صالحين طوال الحوار :يتمثل الأول في أن الكلمات صحيحة بمعنى ما، وإلا لما أنجزت وظيفتها ؛ وثانياً وبما أنها تأصلت وفق الأعراف، فإنها يجب أن تكون من ابتكار كينونة ما إنسانية أو إلهية: أي المُشرّع. ويوضح سقراط صحة الأسماء الطبيعية، التي يشك فيها هيرموجينس، في سلسلة طويلـــة مـــن الاشتقاقات الصرفية المعتمدة على الربط الدلالي. فعلى سبيل المثال، سُميَّ الجسم كذلك لأنـــه "ضريح الروح" أو "إشارتها"، في حين سُميَّ "البرق" برقاً لأنه يدير أعيننا نحو الأعلى. وهنـــاك بعض الكلمات، كالكلمات الأولية، لا تخضع لهذا النوع من التحليل الدلالي. ولذلك يقتـــرح سقراط تحليلاً يعتمد على الترميز الصوتي لمعالجة هذه الكلمات. فلو مثلت/لـــ/ على ســـبيل المثال الانزلاق أو الزحلقة، فإنه يمكن توقع أن تحتوي الكلمات التي تحتوي على هذا الـــصوت عنصراً ما من الانزلاق في معناها، وهذا هو الحال في كلمات: "أملس"، و "حلو" و "لزج". إلا أن الأمثلة المعاكسة مثل وجود /لـــ/ في كلمات مثل Sklerotes بمعنى "قـــساوة"، تظهـــر أن الأخطاء قد زحفت إلى هذا الجانب أو أن بعض الأسماء قد خُصصت أو عُينت خطأً في المقـــام الأول. ويقود أفلاطون القارئ شيئاً فشيئاً ليدرك أن هناك شيئاً من الحقيقة في كلا المـــوقفين. وعلى الرغم من أن للعديد من الكلمات معنى جوهرياً صحيحاً، وبالتالي تتطابق مع الطبيعـــة، إلا انه يمكن العثور على كلمات ليس لها تركيب طبيعي إما لأنها صيغت خطأً منذ البدايـــة أو تحرفت مع مرور الزمن – ويمكن فهمها وفق العرف. ويقترح أن لدى المشّرع وسيلة مباشرة للمعرفة المباشرة للحقيقة – الأشكال أو الصيغ الأفلاطونية – ولكنه فهم هذه الحقيقة بـــشكلٍ ناقص. فلو استطاع المشرّع أن يدرس الحقيقة مباشرة، فلأمكننا ذلك نحن أيـــضاً، لأن اللغـــة ليست سوى تقليد ناقص. وباختصار، فعلى الرغم من أن اللغة مرتبطة أصلاً مباشرة بالحقيقة، وأننا مازلنا ننتظر العثور على بعض آثار ذلك الربط، إلا أنها تمثل طريقاً غامضاً للغاية لمعرفـــة الحقيقة .

ومتى ما قُبلنا الافتراض في أن العلاقة بين الكلمات والأشياء لم تكن مباشرة ولكـــن غير مباشرة، فإن الطبيعة الدقيقة للعلاقة بينهما تبقى بحاجة للتحديد. يتصور تلميذ أفلاطـــون، أرسطو (384-322 قبل الميلاد) في عمله(De interpretatione) Peri hermeneias عملية مـــن ثلاث مستويات: حيث تمثل الإشارات المكتوبة الإشارات المنطوقة أو المحكية، وتمثل الإشارات المحكية انطباعات في الروح، في حين تمثل الانطباعات في الروح مثيـــل الأشـــياء الحقيقيـــة أو الواقعية. ويرى أرسطو أن الانطباعات والأشياء هي نفسها عند كل الناس، في حـــين تختلـــف الكلمات التي تمثل التأويلات. وكما أشار المعلقون على أفكاره بسرعة، فإن هـــذا المخطـــط يطرح كثيراً من الصعوبات. وفضل الفلاسفة الرواقيون (في القرنين الثالث والثاني قبل المـــيلاد) وعدة كتاب آخرين لاحقين أن يضيفوا درجة بين القبول السلبي للانطباع والكلام ألا وهـــي المفهوم، وهو فكرة يمكن صياغتها كلامياً. وهكذا، فعلى الرغم من أن جميع الناس يمكـــن أن يتلقوا الانطباعات نفسها حول الأشياء التي يدركوها، كما يقول أرسطو إلا أن المفاهيم التي يشكلونها حولها يمكن أن تختلف مع ذلك، وهذه هي الأشياء التي يمثلها الكلام.

ووفقا للرواقيين فإن "المفهوم" يُمثّله قول ذو مغزى.وقد عرّفه دايوجنيس بابل (وهـــو فيلسوف رواقي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد وضح لنا أفكاره دايوجنيس لاريتوس (في القرن الثالث بعد الميلاد في كتابه حياة الفلاسفة) على أنه "قول ذو مغزى توجهه فكرة عقلانية". أما مادة القول الفيزيائية فهي "الصوت"، واعتبر القول مجرد صوت سواء أكان منطوقـــاُ أو غـــير منطوق ، بدون الإشارة إلى المعنى. وسمَّي القول الذي يمكن تمثيله كتابة – اللفـــظ المنطـــوق - بالمفردة المعجمية lexis. واختلفت المفردة المعجمية عن القول، ففي حين كان المعنى ضـــرورياً للقول لم يكن للمفردة المعجمية معنى بالضرورة. وبناءً على ذلك، فإن الكلمة الإنجليزية "day" هي مفردة معجمية لأنها تتألف من ثلاثة أحرف، وتشكل صيغة جمعها بإضافة S إلى نهايتـــها ؛ وبشكلٍ مكافيء تماماً، فإن الكلمة الإغريقية blituri عديمة المعنى وهي مفردة معجمية لأنه يمكن تهجئتها وتقبل أداة تعريف التأنيث. إلا أنه لا يمكن لا لـــ "day" ولا لـــ blituri أن تؤلـــف قولاً لأن blituri هي كلمة عديمة المعنى بجوهرها، و لم تدخل day بعد في تجمع مع كلمة أخرى أو كلمات كي تشكل قولاً ذا مغزى مثل "إنه النهار". إن التمييز بين القول Logos ، ككلمة

أو لفظ ذي معنى، والمفردة المعجمية ككلمة ذات شكل فقط لتمييزٌ جوهري في الفكر اللغوي الرواقي وما بعده.

وكانت آثار ذلك واضحة مباشرة في العملية التدريجية حيث يُحلل القول إلى وحدات أو عناصر أصغر فأصغر أي إلى "أقسام الكلام". ويوضح المصطلح الإغريقي mere tou logou بجلاء أن نقطة البداية في التحليل هي "القول"، أي: القول بوصفه وحدة ذات مغزى، وتلك حقيقة تشرح بعض الشواذ الظاهرة في نظام أقسام الكلام القديم. وجد الفلاسفة أنفسهم ينظرون بدقةٍ إلى بناء الألفاظ ذات المغزى أو المدلول. فلو كانت قضية صحيحة أو خطأ، ففي أي قسم من أقسامها يقع الصواب أو الخطأ ؟ ولمناقشة مثل تلك المسائل، كان لابدَّ من مفردات دلالية مناسبة. وفي حواره الصّوفي، يأخذ أفلاطون حالة قول مثل "رجل يتعلم" "He learns ". يمكن تقسيم هذا القول أو اللفظ إلى اسم وماذا قيل حوله أو عنه. Onoma و rhema (خارج هذا السياق، تعني onoma في اللغة الدارجة الاسم وتعني rhema كلمة قول، "حكمة أو قول مأثور). ويمكن العثور على التركيب نفسه في جمله مثل Clinias is ignorant "كليناس جاهل"، حيث تحتل Clinias موقعاً موازياً لذلك الذي يمثله "رجل"، وتوازي is ignorant في موقعها "Learns"؛ وبهذه الطريقة اتخذت كلمة onoma، عادة اسم، و rhema، كلمة "عبارة"، "قول" معاني تقنّيه تتناظر بشكلٍ واسع أو عام مع المسند إليه = اسم أو مايعادله والمسند = فعل أو فعل كينونة بالإضافة إلى صفة. إن أساس هذا التقسيم وظيفي ودلالي، وليس شكلياً. فمن وجهة النظر الشكلية لايتوقع المرء أن يجد الأفعال والصفات في مجموعة واحدة في لغة مثل اللغة الإغريقية، حيث أن تصريفاتها مختلفة تماماً، ولكن إذا ما أخذت وظيفتها فقط في عين الاعتبار، فإن هذا التقسيم طبيعي بشكلٍ كافٍ.

أما الفلاسفة اللاحقون -مثل تلميذ أفلاطون أرسطو والرواقيين - فقد نظروا بدقة أكبر إلى مكونات القول الدلالية. وإذا ما اتبعنا الوصف الأوضح للرواقين كما سرده لنا دايوجنيس لاريتيس، فإننا نجد أنهم حصروا مصطلح onoma "الاسم" باسم العلم (أو، كما سميَّ في القواعد التقليدية باسم العلم أو الاسم الصحيح)، واستقدموا مصطلح prosegoria "اسم عام"للدلة على أسماء الجنس. ووصف مصطلح Rhema بأنه يفتقر إلى الحالة الإعرابية

ويشير إلى شيء ما قيل حول شخص ما. وعرفت فئتان جديدتان: الـــــ Sundesmos وهـــي فئة تفتقر إلى الحالة الإعرابية وتصل أقسام الكلام بعضها ببعض، في حين تمتلك arthron حالة إعرابية وتميز عدد الأسماء وجنسها.

وقد أدخلت الأجيال اللاحقة من العلماء بعض التحسينات على هذا النظام. ويمكن رؤية صورته الأكمل في قطعة بردى مهترئة تعود إلى القرن الأول المـــيلادي ب. ييـــل (inv. 25. 1(446 لم تزل تحتفظ بالجمل الافتتاحية لقواعد توضح أو تعرف أقسام الكلام التسعة. نجد هنا أنه تم تعريف اسم الفاعل metoche على أنه قسم الكلام الذي يأخـــذ أدوات التعريـــف والحالات الإعرابية مثل الاسم، وأيضاً الأزمنة مثل الفعل. أما الضمير (antonomasia، فيمـــا بعد antonumia) فيستخدم عوضاً عن الاسم، وله وظيفة اشارية، ويظهـــر العلاقـــات بـــين الأشخاص. ويقتصر مصطلح sundesomos على أدوات الربط؛ وعُرف حرف الجر prothsis على أنه قسم الكلام الذي ليس له سوى شكل واحد، ويقع قبل قسم آخر من الكلام ويقـــيم علاقة وثيقة معه. أما الظرف (epirrhema)، فهو قسم آخر من الكلام، وله شكل واحد أيضاً، ويقع قبل الفعل أو بعده ، ولكنه يفتقر إلى أيّ علاقة تركيبية معه، ويـــدل علـــى الكميـــة أو النوعية أو الوقت أو المكان أو الإنكار أو الموافقة، أو المنع أو الحض أو التساؤل أو الرغبـــة أو المقارنة أو الشك.

ونلاحظ في جميع هذه التعاريف ، أن الأهمية البالغة للمعنى واضحة في المعايير الدلالية المسيطرة المستخدمة في تمييز أقسام الكلام وفي الفئات القواعدية ذاتها التي تم الوصول إليها. إن فصل اسم العلم عن اسم الجنس، والتردد في الاعتراف بأن الصفة تكّون قسماً من الكلام قائما بذاته - بسبب وظيفتها الاسمية، كما في التعابير الإنجليزية "الجيدون th the goods" أو "البضائع the goods"، مما يجعلها مساوية للاسم في وظيفتها - وتصنيف اسم الفاعل بأنه قسم من الكلام قائم بذاته، رغم أننا نرى بوضوح بأنه مشتق من الفعل – وغيرها من المظاهر في تعريف أقسام الكلام نشأت من تأكيد الإغريق على جوانب القول الدلالية بدلاً من جوانبه الشكلية . وقـــد وصل لنا هذا النظام بصيغة معدّلة بواسطة الرومان، وأوقع اللغويين في محنة التوفيق بين نظـــام تصنيف يصنف الكلمات دلالياً مع الحاجة الملحّة دائماً لأخذ شكل الكلمة بعين الاعتبار.

ونرى هذا التأكيد نفسه (تأكيد الجانب الدلالي للكلام) في بحث قيّم حول النحـــو الاغريقي، **نحو ابولونيس ديكلوس** Apollonias Dyscolus (peri suntaxeos) الذي يعـــود إلى القرن الثاني الميلادي. يجري ابولونيس توازناً بين مستويات اللغة المختلفة: حيث تُطبق قواعـــد الترتيب نفسها على وحدات الصوت الصغرى، والمقاطع، والكلمات، وفي الواقع على الألفاظ برمتها. وكما يقول نفسه : "المعنى الذي يكمن في صيغة كل كلمة بمفردها هـــو في الواقـــع، الوحدة الصغرى للجملة". وكما أنه يمكن لدراسة الإملاء أن تساعد المرء على استعادة الشكل الصحيح لكلمة كتبت أو لفظت خطأً فكذلك فإنه يمكن لدراسة النحو أن تساعد المرء على استعادة التركيب الصحيح لجملة غير قواعدية. ويكرس ابولونيس نفـــسه لإظهـــار الأســـس العقلانية والانتظام المتأصل في نحو بنية الجملة الإغريقية التحتية. وفي ذلك يحتل ابولونيس مكانةً فريدةً تقريباً في كتاب الغرب ما قبل الحديثين ؛ ومع ذلك فإن عمله لم يكن مؤثراً إلا بـــشكلٍ غير مباشرٍ. و لم تكن اللغة الإغريقية معروفة في الغرب أبداً في القرنين السادس والخامس عشر. و لم تكن الكتابات الإغريقية حول القواعد، أو في الواقع حول أي موضوع، ممكنة القراءة حتى تُرجمت أو كُيِّفت إلى /مع اللاتينية في نهاية العصور القديمة. وقام برشيان Priscian (حوالي500 – ميلادية) بتطبيق منهج ابولونيس النحوي على اللاتينية، حيث قَولب آخر كتابين من قواعده العظيمه حول اللاتينية، Institutiones grammaticae وفـــق أســـس نحـــو ابولـــونيس Peri suntaxeos. ووفق هذه الصيغة المنقحة عاشت تعاليم ابولونيس في الغرب، وأدت إلى ظهور عمل آخر في النحو في أواخر القرون الوسطى.

ويمكن ملاحظة نمط مماثل في المورفولوجيا (الصرف). وعلى الرغم من أن اليونـــانين هم الذين طوروا نظام أقسام الكلام والعديد من المفاهيم المتعلقة به، والتي لم تزل تلعـــب دوراً حيوياً في اللغويات الحديثة، إلا أن عملهم لم يدخل التراث الغربي مباشرة، ولكن عن طريـــق الرومان. وجدت القواعد اليونانية تقعيدها المحدد في القواعد التي تم نقلها تحت اســـم باحـــث الاسكندرية دانيسس ثراكس Dionysius Thrax (القرن الثاني قبل الميلاد). و لم تكن ســـوى الفصول الخمسة الأولى من هذا العمل من عمله حقاً، أما باقي العمل فيعتقد الآن أنـــه يعـــود لحقبة متأخرة ربما في القرن الرابع ميلادي. ويمثل ذلك أوج سلسلة طويلة مـــن التطـــورات لا

نقطة بدايتها. وعلى الرغم من أنه غالباً ما يرحب به على أنه مصدر التراث النحوي الغربي، إلا أن تاريخ هذا القواعد يعود في حقيقة الأمر إلى التراث اللغوي البيزنطي وليس الغربي. لقد كان الكتاب التعليمي القياسي في شرق بلاد الإغريق، والذي تُرجم، كلياً أو جزئياً إلى السريانية والأرمينية، وكان محط أنظار العديد من التعليقات والتطويعات البيزنطية. وبالمقابل، فإنه لم يكن معروفا تقريباً في الغرب حتى ظهرت طبعته الأولى عام 11727. وفي الواقع لم تدمج مبادىء القواعد الإغريقية في التيار الفكري الأساسي الغربي عن طريق نحاة العصور القديمة الرومان إلا بعدما تم تنقيحها عبر اللغة اللاتينية.

٢ .٢ روما: التقعيد والنقل

وكما هو الحال في معظم مظاهر حياتهم الفكرية الأخرى، فقد عزى الرومان معرفتهم الإولى بالقواعد إلى اليونانيين. ويخبرنا ستوينس Suetonius (حوالي 69-140 قبل الميلاد) في بحثه عن أساتذة القواعد وفن الخطابة المشهورين (De grammaticis et rhetoribus) كيف كسرت ساق الفيلسوف الرواقي كراتس Crates، من مدينة مالوس Mallos، أثناء بعثة دبلوماسية إلى روما عام 169 أو 168 قبل الميلاد، وكيف أطال فترة نقاهته بإلقاء محاضرات عن القواعد. وعلى الرغم من أن ستونيس يذكر أسماء حوالي عشرين لغوياً بين ذلك الوقت وعصره، إلا أننا لم نعثر على معلومات صحيحة حول تاريخ روما النحوي المبكر. ولم يعد اقتراح باروبك Barwick في أن العقيدة أو الأسس الرواقية كانت هي السائدة في روما، في حين حلّت مدرسة فقه اللغة الإسكندرانية محل الرواقية في العالم الإغريقي، اقتراحاً مقبولاً عامة.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الاهتمامات الرواقية والفيثاغورية واضحة بجلاءٍ في عمل الفيلسوف والمؤرخ الأثري ماركوس تيرنتس فارو Marcus Terentius Varro (116-27 قبل الميلاد). ومن بين أعماله التي زادت عن السبعين لم يبق سوى عملين ، بما في ذلك ستة كتب من عمله الأصلي الضخم حول قواعد اللاتينية De lingua latina الذي ضم خمسة وعشرين مجلداً. وبعد كتاب تمهيدي، تحتوي الكتب من الثاني إلى السابع مناقشة مستفيضة عن علم التأثيل في اللاتينية، وتمحورت الكتب من الثامن إلى الثالث عشر حول التصريف، أما الكتب من الرابع عشر إلى الخامس والعشرين فحول طريقة ترتيب الكلمات في الألفاظ (يُفترض أن

يكون ذلك النحو). لم يبق سوى الكتب من خمسة إلى عشرة، حيث حفظت في مخطوطة فريدة في القرن الحادي عشر من مونت كاسينو Monte Cassino، وأعـــاد اكتـــشافها بوكاســـيو Boccaccio عام 1355 ؛ ولا غرابة في أن هذا العمل لم يكن معروفاً و لم يكن له أي تـــأثير في القرون الوسطى. أما في العصور القديمة فكان تأثيره عظيماً. إن ميول فارو التاريخية والفلسفية أعطت عمله نكهة مختلفة تماماً عن الأعمال الرومانية التي وصلت إلينا حول اللغة. وفي الأقسام الباقية من De lingua latina ، يناقش فارو تقسيمّين عويصين: دور الطبيعة والعرف في أصل الكلمات؛ ودور القياس والشذوذ في تنظيم الكلام. ومثل أفلاطون، فإن فارو يستخلص أن معنى الكلمات الأساسي ، الذي فُرض وفق شروط الطبيعة، قد أصيب بالغموض في العديد من الحالات مع مرور الزمن، ويمكن لعلم التأثيل أن يساعد ،في أغلب الأحيان، على اســـتعادة أو اكتشاف المعنى الأصلي. ويفهم فارو دراسة علم التأثيل بأنه نوع من الشرح الدلالي، بدلاً من بحث تاريخي عن أصول الكلمات الفونولوجي السائد الآن، ويسعى إلى تطوير أسس شـــكليّة مفيدة في متابعته. ويحتل القسم الأكبر من الكتابين السادس والسابع سلـــسلة مـــن أصـــول الكلمات مرتبة وفقاً للأصناف أو الفئات الفيثاغورية الأساسية وهي :Corpus "الشيء المادي"، و Locus "المكان"، و Tempus "الزمان" و "actio" "الفعل، أو العملية". أما في الكتب مـــن الثامن وحتى العاشر، فإنه يتناول موضوع الأدوار الخاصة بالقياس والشذوذ. وبعـــدما يتقـــدم بطريقة reductio ad absurdum التي ليست ببعيدة عن أسلوب أفلاطون، يلغي الحاجـــة إلى جدل حول أهميتهما النسبية، ويظهر أن كلاً من المبدأين ينشأ عن الاستخدام. ويؤسس تميـــزاً هاماً بين الطبيعة التحتية الأصلية للغة والاستخدام من جهة، وبين استخدامات القياس التقنينيّة والوصفية من جهة أخرى. وكما يشير بوضوح:" إن القول بأنه بالإمكان إيجاد تناظرات بين الكلمات شيء والقول بأنه يجب علينا اتباعها شيء آخر" (4x1) . إن نصيحته براغماتيـــه: على الكلمات المبتكرة أن تسترشد بالقياس، ولكن إذا ما وجد هناك شكل شاذ مستقر تمامـــاً عندها، يجب أن يسمح له بالبقاء. وكان التصريف declinatio naturalis جانباً من اللغة يتوقع وجود القياس فيه، في حين غالباً ما عمل الاشتقاق declinatio voluntario بشكلٍ عـــشوائي.

وتقع أهمية فارو في درجة الوضوح التي صاغ فيها بعض مضامين تقسيم المعنى - الشكل وتتبعها بدقةٍ، وتلك أسطورة بنت عليها الأجيال اللاحقة من النحاة الرومان.

لم تنج سوى قلة قليلة من القواعد في الفترة بين فارو وكونتلين Quintilian (30 قبل الميلاد إلى 100 ميلادية) على الرغم من أن الكتاب اللاحقون قد أكثروا من ذكر أسمـــاء نحـــاة القرن الأول أمثال : ك.ريموس باليمون Q.Remmius palaemon وفاليرس بـــروبس Valerius probns، وبانسا Pansa. وَوُجه التعليم الروماني تحت ظل الامبراطورية إلى تدريب الخطبـــاء. فبعد أن يتعلم الأطفال الأحرف تحت رعاية litteraator أو magister ludi، يقومون بدراسة القواعد وتطبيقها على تحليل النصوص الأدبية تحت رعاية grammaticus، وفي نهاية المطـــاف يخضعون لإرشادات rhetor لتأليف خطب عصماء . وجمع العديد من grammatici كتبـــهم المنهّجية الخاصة، وتوجد معظم الكتب التي كُتب لها البقاء، وتعود في أغلبها اساساً إلى القرنين الرابع والخامس، في طبعة هنريك كيل Heinrick Keil المؤلفة من سبعة مجلدات (Grammatici Latini) (ليبزيغ 1855-1880). وإذا ما تجاهلنا الأعمال المتعلقة بالإملاء وعلم العروض، فـــإن هذه الكتب تقع في نمطين أساسين: Schulgrammatik و regulae.

واحتوى نمط Schulgrammatik على عرض منظم للفئات القواعدية موضح بأمثلة من اللاتينية. والكتب من هذا النوع مكونة على نمط الكتب القواعدية المرجعية الحديثـــة، أي: المؤلفة من سلسلة من الفصول، يتعامل كل فصل منها مع موضوع بنفسه بـــشكلٍ مكثـــف ومفصل (ولكن بدون تمارين - وتلك إضافة تعود للقرن التاسع - أو مقاطع للقراءة)؛ وكتاب انموذجي من هذا النمط هو عمل دوناتس Donatus، Ars maior الذي يعود إلى حـــوالي 350 ميلادية،والذي قّسم على ثلاثة كتب: الكتاب الأول ويتضمن فصولاً حـــول Vox أي، الجهر، والصوت، والمادة الصوتية، و Littera أي، "الصوت الكلامي، والحرف ، والمقطـــع ؛ والتفعيلات العروضية ؛ والنبر ؛ والترقيم. ويتعامل الكتاب الثاني مع أقـــسام الكـــلام وهـــي: الاسم، والضمير، والفعل، والظرف، واسم الفاعل، وأدوات الربط، وحروف الجـــر، وأدوات التعجب؛ في حين يختص الكتاب الثالث بالبربريات (أخطاء في شـــكل الكلمـــة)، واللحـــن (متلازمات خاطئة بين الكلمات)، وأخطاء أخرى، وصور بلاغية متنوعة. ولا يقع التأكيـــد في

مثل هذه الأعمال على وصف أشكال اللاتينية، التي يعرفها الطالب – متكلم اللاتينية الأصلي – مسبقاً، ولا على القواعد أو القوانين التي تولدها، ولكن على تسمية الأشـكال المعروفـة وتصنيفها. وبما أن الفئات القواعدية التي طورت بالنسبة للإغريقية كانت ذات طبيعة دلالية إلى حدٍ كبير، كان بالإمكان نقلها إلى اللاتينية بدون صعوبة. وأفضل الأعمال المعروفة من هـذا النوع هي تلك التي ألفها دوناتس Ars minor، وتلك مقدمة مقتضبة في القواعـد، والعمـل الأطول Ars maior. وهناك أعمال باقية من هذا النوع تُعزى إلى سكورس Scaurus، واسبر Asper ، ودوسيشيس Dositheus، والقس اوغوستين St Augustine، وأداكـس Audax، وفيكتورينس Victorinus، وآخرين، إلا أنها كانت أقل أهمية وتأثيراً. وبدون أدنى شك، فإن القس جيروم Jerome، أحد آباء الكنيسة (مع اوغستين، وامبروز وغيريغوري الأعظم)والـذي كان طالباً لدوناتس، قد ألبس عمله ميزة عقائدية في امبراطورية تتعاظم فيها المسيحية. وعندما ضيقّ التعليم الروماني مجاله تدريجياً ، تحول مركز الانتباه إلى القواعد نفسها، وتم التخلي عـن النصوص الأدبية التي كانت من المفروض أن ترافقها. ومنذ نهاية القرن الرابع وما تلاه، أخـذ القواعديون أمثال :سـيرفيوس Servius، وسـيرغيس Sergius، وكلـودونيس Cledonius وبومبيوس Pompeius بكتابة تعليقات حول عمل دوناتس Ars maior، بدلاً من شرح ملحمة فيرجل Vergil الأنيادة Aeneid قواعدياً، وذلك نمط تابعه متخصصون في الدراسات الإنجيلية في القرون الوسطى.

أما النوع الثاني من القواعد الأساسيه فهو نمط regulae الذي أخذ عادة شكل عمل مرجعي صمم للمساعدة في تحديد أو تعريف الأشكال اللاتينية. وقام بهذا النوع من القواعـد كتّاب يعملون في أغلب الأحيان في أصقاع ثنائية اللغة من الإمبراطوريـة أمثـال: برشـيان Priscian،و ايتوكيس Eutyches، وفوكاس Phocas في شرق بلاد الإغريـق، بالإضـافة إلى مارتينوس كابيلا Martinus Capella وماقبل اغوستين في أفريقيا - سمحت هـذه الأعمـال للطالب أن يبحث عن نهاية اسم غريب أو فعل شاذ في قائمة مرتبة ألفبائياً لإيجـاد الجـنس، وتصريف الاسم، وتصريف الفعل، الذي يمكن لمثل هذه الكلمات الغريبة أن تنتمي إليه. يبدو أن هذا النوع كان أكثر شيوعاً خارج إيطاليا، وخصوصاً في الشرق الاغريقي، حيث كان على

الناس الراغبين الصعود في سلّم الإدارة الإمبراطورية في نهاية العصور القديمة أن يلموا إلّماماً جيداً باللاتينية.أما كيف بدأ هؤلاء دراساتهم فذلك أمر غير مؤكد، لأنه إذا ما طرحنا جانباً بعض التمارين المحفوظة في بقايا ورقة بردى، فإن القواعد الباقية تفترض مسبقاً معرفة متقدمة باللاتينية. وينطبق ذلك خاصة على أفضل القواعد المعروفة في شرق الإغريق وهي أعمال برشيان (القسطنطيينية حوالي 500 ميلادية). كانت ثلاثة من أعماله مؤثرة خاصة في القرون اللاحقة وهي: الـ Institutio de nomine et pronomine et verbo، وذلك بحث مقتضب في حالات التصريف اللاتينية ؛ و Partitiones، وهو عمل طويل يحلل كلمات البيت الأول من كل كتاب من كتب ملحمة الانيادة الاثنى عشر على شكل سؤال وجواب ؛ و Institutiones grammaticae، وتلك قواعد مرجعية شاملة في ثمانية عشر كتاباً (ألف صفحة تقريباً).وفي هذا العمل الذي بنيت عليه شهرته قام برشيان بتجميع المعلومات المأخوذة من نوع Schulgrammatik(وأغلبها مستمد من دوناتس) مع بعض المعلومات من نوع Regulae واضعاً بذلك وصفاً شاملاً فعلياً (ومازال مفيداً) للغة اللاتينية تدعمه أعداد كبيرة من الشواهد التوضيحية لعدد من كتاب الأدب. ويعتمد كتاباه الأخيران، حول النحو، على عمل ابولنيس دايسكولس Peri suntaxeos بشكلٍ أساسي، ويجري في العديد من الأحيان مقارنات بين الاستخدام اللاتيني واليوناني. ويظهر اعتماد برشيان على المصادر الإغريقية بجلاء أيضاً في تفضيله الواضح لنسخة معدلة من الترتيب الإغريقي لأقسام الكلام على النحو التالي: الاسم، الفعل، اسم الفاعل، الضمير، حرف الجر، الظرف، أداة التعجب، أداة الربط أو الوصل.

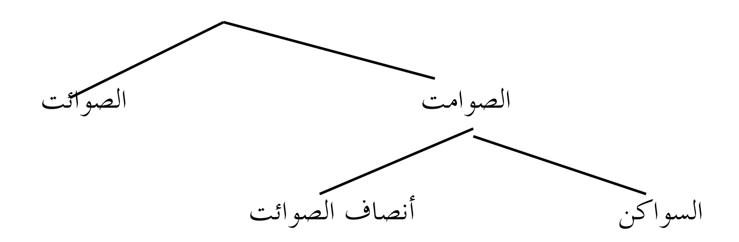
لا يعتبر مضمون القواعد القديمة في جوانب عديدة غير مشابه لقواعد لغة أم حديثة مثل "قواعد الإنجليزية الحديثة" لـ نيسفيلد Nesfield ،حيث تقوم تلك القواعد بجدولة وتوضيح فئات ذات طبيعة دلالية بشكلٍ كبير، كما تضع قائمة بالشواذ الصرفي (صيغ الجمع الشاذة على سبيل المثال). ولا يوجد نظير عصري قريب لأي جانب من جوانب اللغويات القديمة لا من بعيد ولا قريب . هناك مجالان يبرزان على وجه الخصوص بأنهما تطورا بشكل مختلف للغاية عن أي شيء قد تعودناه وهما : نظرية Littera و أصل الكلمات (نظرية التأثيل). وعلى الرغم من أن بذور الأنظمة المعرفية الحديثة للصوتيات والصرف كامنة في هذين الحقلين

الهامين من البحث، إلا أنهما بقيا خامدين عبر العصور القديمة والوسطى، وقد طغـــى عليهمـــا منهج دراسة مختلف تماماً في دراسة الأصوات الكلامية والكلمات. وقبل الشروع في دراســة قصة تطور القواعد في القرون الوسطى – دعنا نستعرض وجهات نظر العصور القديمة والوسطى حول نظرية Littera والطبيعة الصحيحة للكلمة.

٢. ٢. ١ نظرية Littera (الصوت الكلامي)

اعتنق الرومان والإغريق مفاهيم متماثلة حول طبيعة Littera (من الإغريقية gramma)، وهي أصغر وحدة كلامية (حيث تعني Vox، الصوت الكلامي في اليونانية). كانت هناك وجهتـا نظر شائعتان - غالباً ما تذكران جنباً إلى جنب. فوفق الأولى، يمثل Littera الرمز المكتـوب، وهو تمثيل الصوت الكلامي (اللاتينية elementum، وفي اليونانية Stoikheion). وكانت وجهة النظر هذه، والتي تمثل الصيغة الأم لتقسيم الحرف - الصوت الحديث، أقل أهمية في العـصور القديمة من وجهة النظر الثانية الأكثر تعقيداً وفي الواقع، حتى ما بعد 1800 بقليل. فقد وصـف كل من الرواقيين والرومان الـ Littera على أنها كينونة ذات صفات ثلاث: اسمها (nomen)، وشكلها أو الشكل المكتوب (figura)، وصوتها أو قيمتها (potestas). و;كانت وجهة النظـر هذه الأكثر مرونة، والقادرة على التوسع والتشذيب بدرجة أكبر بكثير من التعارض الـصريح بين الحرف – والصوت، بوصفها قاعدة لسلسلة طويلة ومتنوعة الوجوه والجوانب من المنـاهج في دراسة Littera من قبل علماء العصور القديمة و الوسطى بشكلٍ أكبر .

كانت قيمة Littera أو صوتها (potestas) هي الصفة التي كان نطاق دراستها قريبـاً للغاية من علم الصوتيات الحديث. حيث صّنف كل من أفلاطون وأرسطو والرومـان Littera على النحو التالي :



(وضمت فئة أنصاف الصوائت المصطلح الحديث ممتد: وتضم قائمة دوناتس الأصـــوات /ف/ /ل/ م/ ن/ ر/ س/ خ/ تحت هذه التسمية).

و لم تشعر سوى قلة من العلماء بحاجة للبحث أكثر من ذلك في الصوتيات النطقية. ومن بين هؤلاء كان دايناسس Dionysius من مدينة هالكرناسس Halicarnassus (30-8 قبل الميلاد) الذي كان وصفه المشهور لنطق أصوات الإغريقية غير معروف في اللاتينية الغربية حتى ظهور طبعته الأولى عام 1508 على يديّ الطباع البندقي المـــشهور الـــدس مـــانيوتس Aldus Manutius، وعالم العروض والقوافي تيرنتيانس مـــاريوس Terentienus Maurus (في القـــرن الثاني) الذي لم يُقرأ وصفه لأصوات اللاتينية وعروضها شعراً قبل عصر النهضة إلا قليلاً.أما في الواقع، فكانت الشروحات المؤلفة من سطر واحد والتي عرضها مارتانيوس كابيلا Martianus Capella (في القرن الخامس) في موسوعته المجازية بعنوان: الزواج بين فقه اللغة ورسول الآلهـــة (عطارد) (3-261) تمثل الأوصاف النطقية الوحيدة لأصوات اللاتينية المتوفرة لمعظم بـــاحثي العصور الوسطى . وما زالت بعض الأوصاف مثل: إن /د/ تنتج عن اندفاع اللـــسان نحـــو الأسنان العليا" أو إن "/ل/ترن بنعومة بين اللسان والحنك" أو إن ابيوس كلوديـــوس Appius Claudius كره الصوت /ز/لأنه يشبه - على حد قوله- صكيك أسنان إنسان يلفظ أنفاســه الأخيرة " يُستشهد بها حتى القرن السادس عشر. و لم يبدأ مسيحيو عصر النهـــضة الاهتمـــام بالصوتيات النطقية بشكلٍ أكبر إلا عندما توفرت لديهم معرفة ودراية معقوله بالتفاصيل الأكثر دقة للصوتيات النطقية الشائعة في قواعد القرون الوسطى في اليهودية والعربية.

وبالمقارنة أثارت صفات اسم الصوت الكلامي (nomen) وشكله المكتوب (figura) اهتماماً نشطاً ومبدعاً بين علماء العصور الوسطى. فقد تم تداول العديـــد مـــن الألفبائيـــات الغربيةكاليونانية، واليهودية، والكلدانية، والقوطية، والرونية، والاوجامية بالإضافة إلى العديـــد

من الرموز والشيفرات ؛ وتم كذلك تداول مدونات قصيرة حول ابتكار حروف وكتابات صوتية متنوعة. وتم ممارسة شكل قديم من الكتابة الاختزالية وهي الكتابة التورانية Tironian، في بعض مراكز الرهبنة في القرنين التاسع والعاشر، في حين أضاف الخطاطون في بعضها الآخر رموزاً صغيرة في الصيغة اللاتينية المنقحرة (المنقولة كتابيا) إلى الاحرف اليونانية. وقدّم بحث صغير قيّم من القرن السابع أو الثامن يُعزى لسيرجيلس Sergilius (وهو ايرلندي باسم فيرجل Fergil) وصفاً لحركة القلم في رسم كل حرف، وأعطى اسماً لكل حركة قلم في اللاتينية واليونانية واليهودية ، حيث نجد: " ما هي أسماء االحركات الثلاث للحرف A في اللغات الثلاث المقدسة ؟ ففي اليهودية أبْستْ، إبْستْ، أُبستْ. وماذا تسمى في اليونانية؟ ألبس، إلبس، أُلبس. وفي اللاتينية ؟ مائلتان وخط مستقيم يقطعهما".

إلا أن اعتبار الصوت الكلامي Littera ككينونة فيزيائية ملموسة أو وحدة كلام مسموعة لم يلفت انتباه علماء العصور الوسطى بالقدر الذي يمكن لأهميته الممكنة أن تساعد على توضيح مظاهر أو جوانب أعلى من النظام الكوني. حيث يشرح كاتب من القرن السابع وهو فيرجيل النحوي: "فمثلما يتكون الإنسان من جسم، وروح، ونوع من النار الإلهية، فكذلك يمكن مقارنة الصوت الكلامي (littera) بالجسم – أي: شكله، ووظيفته ولفظه (وكأنها مفاصله و أطرافه) – وتقبع روحه في معناه أو دلالته ونفسه في علاقته مع الأشياء الأعلى". وطبق كُتّاب آخرون تفسيرات مجازية وتصنيفية على مظاهر الصوت الكلامي Littera المتعددة، على شكله في أغلب الأحيان. أما صوته فكان الأقل أهمية: لأن ذلك كان يمثل القسم الأرضي من Littera أي،"جسمه". و لم يبدأ المفكرون الغربيون بالتأمل بالجانب الفيزيائي من الكلام إلا عندما بدأت العصور الوسطى تزحف بالتدريج نحو نهايتها، وبدأوا يفكرون جدياً بالجوانب أو المظاهر الفيزيائية للعالم الطبيعي. و لم يأت الدافع لفعل ذلك من داخل التراث الغربي نفسه ولكن من الخارج: الأول أثناء عصر النهضة من العالم السامي وفيما بعد من الهند حوالي عام 1800.

٢. ٢. ٢ أصول الكلمات(علم التأثيل)

اتسم عمل العصور القديمة والوسطى حول الكلمة بالتردد نفسه الذي اتسم به التفكير بالجانب الفيزيائي للكلام. فالمورفولوجيا (الصرف)، دراسة شكل الكلمة، وهي فرع من اللغويـــات لم يلق اهتماما كبيراً في مجال تعليم اللغة ؛ أما كموضوع بحث أكاديمي مستقل بذاته، فلم يتطور إلا بعد عصر النهضة. فعندما بحث علماء العصور القديمة والوسطى الطبيعة الصحيحة للكلمة، انصب اهتمامهم على المعنى الأصلي للكلمة وليس على شكلها الأصلي. وبقيـــت المبـــادىء القديمة لعلم التأثيل كما صاغها فارو مؤثرة للغاية خلال العصور القديمة وما بعد. وأقرَّ فـــارو التمييز الإغريقي بين دراسة أصل الكلمات، أو علم التأثيل، ودراسة ما تمثله، أي: "علم الدلاله" عامة. وأقام أربعة مستويات من الشرح لأصول الكلمات، تتراوح من الكلمات الـــتي كـــان أصلها شفافاً أو واضحاً إلى تلك التي تمثل مقعداً لغموض عويص. وهناك عدة عوامل يمكنـــها أن تُبهم العلاقة بين أصل الكلمة ومعناها: وهي الوقت، والتأثير الأجنبي، وعدم الدقة في وضع الأسماء أساساً. ويمكن للتغيرات في شكل الكلمة أن تحدث عبر عمليات متنوعة منها: الإضافة، والحذف، وتغير الموقع وتبدل في كل من الأصوات المنفردة أو المقاطع. وقد أكدَّ فارو واتباعـــه العمليات التي يحدث التغير من خلالها وليس الأصوات الحقيقية التي تخضع للتغيير (وعلى الرغم من أن برشيان هو أكثر النحاه اهتماماً بالشكل، إلا أنه قام بفهرسة المتغيرات التي يخضع لها كل حدث كلامي من Littera في كتاب Institutiones grammaticae (19,43-9,20). وبعبـــارة أخرى، لم يكن التشابه بين شكّلي الكلمة هو العنصر الأهم ؛ بل كان التركيز منـــصباً علـــى العلاقة الدلالية. أخذت أنماط العلاقة الدلالية شكل جداول عند نحاة العصور القديمة والوسطى وبالاهتمام نفسه الذي نجده عند النحاة المهتمين بالتغيرات الصوتية فيما بعد. وإحدى المقولات المختصرة ولكنها ذائعة الصيت تلك التي ضمها ايسدور Isidore من سيفلي Seville (الـــذي توفي في 636) في عمله الضخم حول أصول الكلمات Etymologiae، وهو موسوعة تقـــع في عشرين مجلداً هدفها توضيح أهمية علم المصطلحات في كل جانب من جوانـــب الاهتمامـــات الإنسانية. ويجدول ايسدور ثلاثة أنواع من الاسماء: تلك المشتقة من سبب، مثل reges "الملوك" من recte agendo "التصرف بحكمة"، لأن الملك لن يكن ملكا إن لم يتصرف بحكمه (وذلـــك

اعتقاد ذو مضامين سياسية فظيعة طورها منظرو السياسة في العصور الوسطى) ؛ وتلك الـتي تشير إلى أصل شيء، مثل homo "إنسان" مـن humus "تـراب، أرض"، وتلـك كلمـة استخدمها علماء اللاهوت لتأكيد طبيعة الإنسان الأرضية وتمييزها عن الإلهية، وتلك التي تنشأ عن اضدادها، مثل lutum "طين" من Lavare "يغسل". وهكذا وجـد ايـسدور وأتباعـه في القرون الوسطى أن العلائق الدلالية هي المفتاح لمعنى الكلمة الصحيح. فلو استطاع اكتـشاف العلاقة بين "الإنسان" و "التراب" توضيح المعنى الصحيح الأعلى للإنسان وقدره، عندئذ يكون علم أصول الكلمات قد أدى غرضه. أما أصل الشكل الذي هجئ على شكل homo فلم يكن موضع أي اهتمام.

يساعد هذا الموقف على شرح غياب الاهتمام بدراسة المورفولوجيا في دراسات اللغة في العصور القديمة والوسطى. إن تمييز فارو بين declinatio naturalis الـذي يتنـاظر مـع المورفولوجيا التصريفية (تصريف الأسماء والأفعال وغيرها)، و declinatio voluntaria والذي يتناظر مع المورفولوجيا الاشتقاقية (تشكيل كلمات جديدة من كلمات موجودة مـن خـلال إضافة أو حذف عناصر محددة) لم يُتَّبعْ بشكلٍ كامل مطلقاً. وحتى القرن الثـامن، لم يـزل بونيفيس Boniface (الذي قام فيما بعد ببعثته المشهورة إلى الألمان) يضمن أسماء اشتقت مـن جذور فعلية مثل emptio "صفقة شراء" و emptor "مشتر" في جدول الفعل emer "يشتري". ولم يصل فارو ولا أيّ نحوي قديم إلى مفاهيم "الجذر"، و"الجذع" أو الزائدة: وحيثما يستعمل فارو مصطلح radix "جذر"، فإنه يستخدمه بدون أيّ معنى تقني محدد. إن القواعد التوليديـة من النوع المألوف في الكتب المنهجية التدريسية المعاصرة – مثل: "كي تصيغ الزمن الحاضـر، خذ الجذع الحاضر وأضف إليه النهايات الضميرية (الدالة على الأشخاص) - لم تكن معروفـة في قواعد العصور القديمة والوسطى. وبدلاً من ذلك، اعتمد النحاة أنموذج الكلمة والجدول في الوصف حيث اعتبرت الكلمة أنها الوحدة الصغرى. واعتبر كل شكل منصرف على أنه مميـز ومتكافىء مع غيره. وينتج هذا الموقف بشكلٍ طبيعي عن أولوية الجانب الدلالي: كيف يمكـن للمرء – على المستوى الدلالي - أن يشتق "أنت تشتري" من "أنا اشتري"؟ ومرة أخرى، نجد أن المفاهيم الضرورية دخلت التراث اللغوي الغربي من الخارج، من التراث السامي أولاً، ومن

التراث النحوي الهندي فيما بعد. و لم يكن ممكناً بالنسبة لأنظمـــة المعرفـــة الحديثـــة المتعلقـــة بالمورفولوجيا وفقه اللغة التاريخي والمقارن من الظهور إلا عندما أصبحت هذه المفاهيم الأساسية قيد الاستخدام والتداول.

٢. ٣ القواعد في العصور الوسطى

كيف فعل باحثو العصور الوسطى،عندئذ، بشأن تعليم اللاتينية ؟ فاللاتينية وهي لغة الكنيسة الغربية، كانت لغة أجنبية لمعتنقي المسيحية الجدد في كل من إيرلنده، وانجلترا والبلدان الناطقـــة بالألمانية، والدول الاسكندنافية وأوروبا الشرقية. إن التوجه الدلالي والتصنيفي للقواعد كالذي صاغه دوناتس كان ذا نفع لايذكر لهؤلاء الطلبة: إن الأشكال اللاتينية التي اعتبرها دوناتس أمراً مسلماً به هي ما احتاج هؤلاء الطلبة تعلمه بدقة. ولأن القواعد التوليدية لم تكن معروفة، فإن الجداول – وهي النماذج التي توضح كل صيغة من أجزاء الكلام المنصرفة في تعاقب قياسي – كانت ضرورية للغاية . ففي البداية، جمع المعلمون ببساطة هذه المعلومات بـــشكلٍ مـــستقلٍ، وألفوا جداول لا تحصى من الأسماء والأفعال بقوائم طويلة من أمثلة من المفـــردات المـــسيحية. وأُعطيت أمثلة لكل نمط فرعي ممكن – كل لاحقة اشتقاقية، وكل لاحقة تدل على الجـــنس ، وكل نهاية اسمية مرفوعة – بشكلٍ مستقل. ولكن بفضل التجربـــة حـــددَّ المعلمـــون أنماطـــاً مورفولوجية فرعية هامة، وقيدوا اختيارهم للجداول وفقا لذلك. ومع حلول عام 700 ميلادية حصل انصهار بين هذه المواد وعمل دوناتس Ars minor: وهكذا استطاع الطلبة أن يجدوا في القواعد(الأولية) الجزيرية Insular (سميت كذلك لأن أصلها من الجزر البريطانيـــة) المفـــاهيم القواعدية التي علّمها دوناتس جنباً إلى جنب مع الجداول التي احتاجوها إن كان عليهم تعلـــم كتابة اللغة أو فهمها بشكلٍ كاملٍ. وكانت هذه الأعمال أول قواعـــد منتظمـــة في الغـــرب صممت لطلبة اللغة الأجنبية – وهي سلف قواعدنا المدرسية التقليدية. وعلى ما هي عليه تعتبر هذه القواعد إسهاماً عظيماً للغويات -أي الانتقال من قواعد أساسها دلالي وتصنيفي إلى قواعد وصفية تعتمد الشكل.وعلى الرغم من أن اللغويات الغربية كانت بطيئة في تأقلمها مع الشكل، إلا أنه يمكن العثور على بداية العملية هنا، في مدارس الرهبنة في الجزر البريطانيـــة في القـــرنين السابع والثامن الميلاديين.

و لم تكن مادة الشرح والتوضيح لدى نحوييّ اللاتينية المتأخرين أوفر حظاً أو ملاءمة من الإطار النظري الذي اعتمدوه. فقد كان هدف الطالب الروماني اليافع حفظ النصوص الكلاسيكية الأكثر احتراماً وتقديراً في عصره، في حين اعتبر الراهب الايرلندي - أو الأنجلو- سكسوني القواعد وسيلة لفهم الإنجيل.وقام أساتذة مختلفون باستبدال نصوص الأدب الكلاسيكية التي استخدمها النحويون القدامى بدرجة كبيرة أو صغيرة: فالبعض، مثل بونيفيس (حوالي 675-654 ميلادية) لم يبدِ أي اعتراض على استخدام مقتطفات قصيرة من الإنيادة بجانب أشعار من الإنجيل. في حين ذهب البعض الآخر مثل اسبوريس Asporius (حوالي600 ميلادية) إلى حد استبدال "روما" و "طبريا" عند دوناتس بـ "القدس" و "الأردن". وقليل هم أولئك النحاة الذين استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى تركيب كامل للقواعد والإيمان. واستخدم فيرجل النحوي (حوالي 650 ميلادية)، وهو كاتب مغمور، استمتع في مد وتوسيع مصادر تشكيل الكلمة في اللاتينية لاحتواء مفاهيمه الدقيقة (ابتكر فعل Vidare "يرى بعين الروح" مقارنة بالفعل الأكثر شيوعاً Videre "يرى بالعين المجردة")، كما وظف ars grammatica التقليدي كإطار لإظهار كيف يمكن للغة الإنجيلية أن تشير إلى أشياء أعلى ad Sublimiora. وحوالي 800 ميلادية ضم سماراكدس Smaragdus، وهو أكثر شهرة بسبب عمله التعبدي Diadema monachorum، في قواعده بحثاً عن أساليب وتقنيات القوة التحقيقية المستخدمة في سياقات إنجيلية مختلفة كجزءٍ من برنامجه لإعطاء مقدمة متزامنة لفهم كل من القواعد والنصوص الإنجيلية .

ونفخت النهضة الكارولينية تحت قيادة تشارلمامين Charlemagne والأساتذة الذين ضمهم في بلاطه حوالي عام 800 الحياة ليس في أعمال الأقدمين الأدبية فحسب، ولكن أدت أيضاً إلى تحوّل في اهتمامات النحويين. وُأهملت القواعد الأولية الجزيرية ، واستبدلت إما بنسخة موسعة من Ars minor أو بقواعد إعرابية، أو كتب منهجية على شكل سؤال وجواب، أوحى بها عمل برشيان Partitiones، الذي يحلل فيه عيّنة ممثّلة لكل جزء من أقسام الكلام ،على سبيل المثال :

- إلى أي قسم من أقسام الكلام تنتمي كلمة Codex ؟

- اسم .

- كيف عرفت ذلك ؟

- لأنها تدل على شيء محدد وتنتهي بعلامة الاسم التصريفية .

- هل هي اسم علم أم اسم جنس عام ؟

- عام (جنس).

- لماذا ؟

- لان هناك العديد من Codices .

وبقى هذا النوع شائعا ومنتجاً حتى نهاية العصور الوسطى: وكانت القواعد الإعرابيـــة مثـــل قواعد Dominus quae Pars و Ianua (Poeta quae pars) اللـــذين طبعـــا بـــشكلٍ منـــتظم (متكرر)، من أكثر القواعد شيوعاً واستخداماً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وكانتـــا أنموذجاً للهجاء السياسي والاجتماعي كما في Nummus quae pars:

- إلى أي قسم من أقسام الكلام تنتمي "عملة نقدية" ؟

- حرف جر .

- لماذا ؟

- لأنها تقع قبل أقسام الكلام الأخرى جميعاً، وكافة أنواع المعرفة المعتمدة عليها .

- ما هو عددها ؟

- مفرد وجمع .

- لماذا ؟

- لأنها مفردة بين الفقراء وجمع بين الأغنياء .

كانت إعادة اكتشاف عمل آخر لبرشيان وهو Institutiones grammaticae علـــى قدرٍ كبيرٍ من الأهمية للقرون اللاحقة.وعلى الرغم من أنه كان كثير التفصيل ومتعباً للاستخدام في غرفة الدرس في القرنين السابع والثامن، إلا أن نحاة القرن التاسع الأكثر طموحـــاً فهمـــوه وقدّروه تقديراً عالياً. ومنذ عصر الكوين Alcuin (حوالي 735-804 ميلادية) وما بعد نـــذرت أجيال الأساتذة نفسها إلى مهمة تسهيل مبادىء Institutiones وجعلها أكثر قبولاً واستـــساغة للطلبة، وحضرت نسخاً مختصرة، ومناقلات (تفسير للنص)، ومقاطع وتعليقـــات، صُـــممت جميعها لمساعدة الطالب على اتقان مبادىء Institutiones الصعبة القويـــة في ذات الوقـــت. واحتاجت مصطلحاته إلى شرح أيضاً، لأنها تشبه تلك المستخدمة في المنطق، وتلك منطقة بحث ودراسة لم تكن معروفة حينها .

إلا أن علوم المنطق لم تدخل المنهاج الدراسي، ولكنها شكلت تأثيراً كامناً لتطـــور القواعد في العصور الوسطى المتأخرة. ودخل عملان من أعمال أرسطو حول المنطـــق وهمـــا المقولات المنطقية Categories والتفسير De interpretatione، رفقة مقدمة Isagoge لبروفيوري التداول من خلال النسخة اللاتينية التي قام بترجمتها عن الإغريقية بوثيس Boethius ، ودرسها الكوين وحلقته بشغفٍ شديد. إن التوازي بين الفئات القواعدية والمقولات المنطقية الذي كان واضحاً للغاية في هذه الأعمالٍ لفت انتباه قرائها في القرن التاسع. وحاول أحـــدهم في ديـــر القديس غول Gall في سويسرا أن يصنف كافة أنماط الاسم العام عند برشيان في واحـــدة أو أخرى من مقولات أرسطو العشرة. ومن خلال تجارب من هذا النوع، تم الوصول إلى تفـــسير أو تأويل أعمق وأشمل للقواعد والـــديالكتيك (المنطـــق). وطرحـــت دراســـة الـــديالكاتيك (المنطق)أسئلة نقدية وشاملة حول مفاهيم أو أسس القواعد التقليدية التي اُعتبر برشيان ممثلـــها الأفضل بلا منازع. و كما شكا وليام William، من كونشيس، في بداية القرن الثاني عـــشر عندما قال: " إن تعريفات برشيان غامضة ولا تعطي توضيحات أو شروحات، وأغفل تمامـــاً سبب ابتكار أقسام الكلام وصفاته". وهيأ هذا التصور أساساً لعمل لاحق. وعلى الرغم مـــن ذلك، فإن اقحام الديالكاتيك في قلب القواعد لم يلق موافقة عالمية. ففي منتصف القرن الثـــاني عشر ميلادي، عاد النحوي المشهور بطرس هلياس Petrus Helias، وهو يحاضـــر في بـــاريس،

عمداً إلى مصادر القواعد وأساليبها التقليدية (التي أُثريت بمغازلتها مع الديالكتيك) في تعليقاته المدروسة على نطاق واسع حول Institutiones grammaticae. وتبع خطاه النحويون اللاحقون، وسلكت القواعد والمنطق مسارات تطور مختلفة. واستمر النحويون في جعل برشيان أساس دراستهم، وأولوا كتبه الخاصة بالنحو اهتماماً خاصاً. وإذا ما أخذنا في عين الاعتبار شروط الجامعات مثل جامعة باريس وتولوز بأنه يجب على كافة الطلبة أن يستمعوا لـ Institutiones grammaticae مشروحة عدة مرات أثناء دراستهم، نجد أن قدراً كبيراً من الطاقة قد صرف للتعليقات والنصوص التي تعالج نقاطاً دقيقة ومفصلة.

وعلى المستوى الأدنى أيضاً، أصدر النحويون سيلاً من الكتب المنهجية التدريسية الأولية والمتوسطة، غالباً ماكانت نظماً: نذكر من بينها Doctrinale لألكسندر Alexander من فيلا دي عام (١١٩٩) و Graecismus, لإيبرهارد بيثن Eberhard Bethun عام (1212)، وكانت هذه الأعمال معروفة عبر أوروبا الكاثوليكية برمتها، وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك أعمال كثيرة مقيدة جغرافياً ، منها: قواعد الكسندر نيكام Alexander Neckam و جون John من غارلند، ونيكولاس كيمبف Nicolaus Kempf، وجوهانس سكلسبشر Johannes Schlispacher، وجوهانس بالبي Johannes Balbi (جون من جنوه)،و غوتلفس دي هيليجنكرس Gutolfus de Heiligenkreuz و Fundamentum puerorum لثوماس Thomas من ايرفروت عمله Fundanentum Puerorum وآخرون كُثر. وتدريجياً فسحت كتب القواعد المنهجية ثلاثية البناء على غرار Schulgrammatik المجال لبناء جديد رباعي الاجزاء يتألف من: الإملاء Orthographia، وهي سمات الـ Littera ؛ و Prosodia علم العروض،ويهتم بسمات المقطع مثل الطول والنبر، و etymologia أي، أصول الكلمات المهتمة بأقسام الكلام الثمانية، والنحو (علم التراكيب) diasynthetica. تمثل هذه البنية المبنيّة تدريجياً أي، التقدم من الوحدة الأصغر إلى الوحدة الأكبر، السلف للهرمية الحديثة في الصوتيات، والفونولوجيا، والمورفولوجيا وعلم التراكيب. يمكن رؤية تضيق مجال القواعد في هذه الأعمال بوضوح، بحيث انحسرت الاهتمامات إلى دراسة التفاصيل بلغة واحدة أي، اللاتينية، بدلاً من الاهتمامات العالمية المرتكزة على علم الدلالة في العصور القديمة. وضمن تلك الظروف، كان تضييق المجال أمراً

محتماً: فحيثما كانت هناك حاجة ماسة وواسعة للتعليم في قواعد لغة بعينها، كان لا بـــدّ وأن يكون التركيز على وصف قواعد "بعينها" دون غيرها.

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر قُوبل التقييد الواعي المتزايد لمجال القواعـــد بدوافع جديدة لدراسة جانب اللغة العالمي. وبدخول أعمال أرسطو التي كانت غـــير متـــوفرة سابقاً حيز الدراسة والتداول من أسبانيا وسيسلي في ترجمات لاتينية جديدة منذ عام ١١٤٠ وما بعد، جرّبَ العلماء الأفكار الجديدة على كل فرع من الفروع التقليدية للمعرفة. وتعلـــم العلماء من علم الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والأعمال الأخرى كيف يطرحـــون التـــساؤلات حول طبيعة الأنظمة المعرفية التقليدية. فقد قارن أرسطو بين الأنظمة الفكرية أوالنظرية والمهـــن العملية: "إن هدف المعرفة النظرية هو الحقيقة في حين يتمثل هدف المعرفة العمليـــة بالكفـــاءة (الميتافيزيقاII ٩٩٣ ب٢١-٢٢). وهكذا، يفهم المهندس المعماري المبادىء الأساسية لتصميم الأبنية، في حين لا يمتلك البنّاء/الباني سوى المعرفة التقنية المتعلقة بمزج الملاط. وقد وُسع هـــذا التقسيم بين فروع المعرفة النظرية وفروعها العملية ليشمل اللغة. قام بذلك عدد مـــن العلمـــاء ابتداءً بروجر بيكن (حوالي ١٢١٤-١٢٩٢/٤) وما بعده . حيـــث بحثـــت Grammatica Speculativa (القواعد النظرية/التأملية) في مبادىء القواعـــد العالميـــة. في حـــين اهتمـــت grammatica positiva (القواعد الوصفية) بتفاصـــيل لغـــة بعينـــها. وركـــزت "القواعـــد النظرية/التأملية" على ما هو أساسي وعالمي، في حين ركزَّت "القواعد الوصفية" على ما هـــو عرضي وخاص. واستمر ممارسو القواعد الوصفية في نهاية العصور الوسطى ببناء تراث قـــوي الأسس عاش حتى عصر النهضة؛ في حين كان النحويون المتأملون/النظريـــون، مـــن الناحيـــة الأخرى، واعين لحداثة طروحاتهم.

إن أفضل أتباع القواعد الفكرية/التأملية هم الصيغّيون، وهم مجموعة صـــغيرة مـــن النحاة النشطيين في جامعة باريس بين حوالي 1250 و 1320 ميلادية. وكان مارتن Martin من داشيا وميشيل دي ماربياس Michel de Marbais أكثر ممثلي الجيل الأول شهرة من الصيغّين، في حين كان توماس Thomas من ايرفورت وسيجر دي كورتراي Siger de Courtrai أكثرهم شهرة من الجيل الثاني. واعتمدت عقيدقم على فكرة "طرق الترميز" modi Significandi، التي

هيأت إطار عمل لوصف عملية اللفظ/التلفيظ. فحسب وجهة نظرهم، يمكن استيعاب الشيء الحقيقي الخارجي بالنسبة للإدراك الإنساني بوصفه مفهوماً من خلال الإدراك أو الفهم، ويمكن جعل المفهوم معروفاً من خلال رمز منطوق، وبالتالي يصبح مدلولاً res Significata. وتعمل صفات المدلول وطرق ترميزه، (مشتقة مباشرة من سمات الشيء الحقيقية في العالم المادي) على التمييز بين الوحدات الدلالية dictiones، قواعدياً. فعلى سبيل المثال، هناك وحدات دلالية مختلفة dictiones تشرح فكرة الحزن الأساسية : dolor "حزن"، doleo "أنا أحزن"، dolens "إنسان حزين"، dolenter "بشكل حزين"، heu "للأسف". ولا يمكن تمييز الواحدة عن الأخرى وظيفياً إلا عندما تصبح dictio جزءاً من لفظ كامل pars orationis أي،" قسماً من أقسام الكلام -من خلال أقسام الكلام عن طريق "طرق الترميز" لأقسام الكلام المختلفة modi Significandi. يمكن تمييز الاسم Dolor "حزن" عن الفعل doleo "أنا أحزن": من خلال وجود صيغة الاستقرار والاستمرارية أي، modus entis - لأن الحزن ظاهرة مستمرة موجودة في العالم - في حين يمكن للحزن المتأصل في doleo أن يُتبع فيما بعد بالفرح لأن doleo "أنا أحزن" تمتلك صيغة التغير والتتابع modus esse.

ولا يمكن تقييم نظرية الصيغّين التركيبية (النحوية) بشكلٍ صحيح أو مناسب،و التي هي موضوع مقارنة مع نظرية التبعية الحديثة، حتى نعرف المزيد حول الأفكار غير الصيغيّة حول علم التركيب (النحو) كتلك المحفوظة في التعليقات حول Institutiones grammaticae. وربما يعزى إلى الصيغّين أنهم تناولوا أفكاراً ذائعة الصيت والتداول في وقتهم .وبالتأكيد فإن الأسس الفكرية/المعرفية لنظريتهم ،أي البنية التحتية لطرق الترميز نفسها ،هي التي تعرضت لنقد الذين جاؤوا من بعدهم وليس نظريتهم النحوية. ومع منتصف القرن الرابع عشر كانت الصيغية موضع نقد وهجوم من قبل الفلاسفة الاسميين مثل وليام william من اوكهام (حوالي-9/1347) 1285. فقد أنكر وجود أي اتصال جوهري بين الكلمات والواقع، وهو المفهوم الأساسي الذي تعتمد عليه "طرق الترميز"، ووضح الفروقات بين سمات اللغة العقلية واللغة المحكية. وخَلُص إلى القول أنه من غير المفيد النظر إلى اللغة كمرآة للإدراك أو الواقع الخارجي ؛ وأنه من الأفضل كثيراً دراسة الفكر – أو الواقع – مباشرة عوضاً عن اللجوء إلى الوسيط الصعب المراس وهو

اللغة. وفي الوقت ذاته ، تسربت مفاهيم "طرق الترميز" إلى مستويات أدنى من التعليم، خاصة في ألمانيا، وأصبحت بعض مصطلحاتها ومفاهيمها – في شكل مبسط – مفاهيم قواعدية شائعة . وحتى مؤخراً في عصر بور رويال Grammaire generale at raiosnee (1660) كانت عبـــارة maniere de Signifior لم تزل مستخدمة على نطاقٍ واسع للغاية.

٢. ٣. ١ التجريب: قواعد العصور الوسطى الدارجة (المحلية)

علينا البحث في التراث اللاتيني لمعرفة ملامح تيار الفكر اللغوي الرئيسي في العصور الوسطى، لأن اللاتينية كانت لغة الأكاديمين - واللغة العالمية التي تربط كافة مثقفي المـــسيحية بعـــضهم ببعض، بالإضافة إلى كونها أفضل لغة مدروسة وموصوفة متوفرة للغوي والفيلسوف. حظيـــت كل من اليونانية واليهودية ،من حيث المبدأ، بمكانة اللاتينية نفسها، حيث تم تقدير اللغـــات الثلاث على أنها "لغات مقدسة" كتب بها على الصليب، ولكن لم تنجح، في الواقع، سوى قلة قليلة من الغربيين قبل عصر النهضة من معرفة أكثر من الفبائيات اليهودية أو اليونانية. أما بمـــا يتعلق باللغات المحلية (الدارجة) أي، اللغات المحكية المختلفة فلم تكتب إلا تدريجياً .و لم تكـــن هناك حاجة لقواعد اللغات المحلية إلا عندما اعتاد الناس قراءة لغاتهم الخاصة بهم.

وغالباً ما يُستخدم مصطلح "قواعد القرون الوسطى المحلية" للدلالة على ثلاثة أنواع متباينة جداً من المعلومات وهي:(١) كتب منهجية مصممة لتعليم اللاتينية لمتكلمين لا تمثل اللاتينية لغتـــهم الأم ويستخدمون اللغة الدارجة كوسيلة للتعلم. (٢) أعمال كُتبت في لغة محلية توضح المبادىء العامة للقواعد - وغالباً ما تكون تلك ذات صبغة دلالية أو وظيفية - وتشتق أمثلتها من اللغة التي كتبت بها. (٣)أعمال تصف تركيب اللغة المحلية، وتستخدم عادة اللغة المحلية كوسيلة لها .

وعلى الرغم من أن معظمنا يتصور اليوم أن أفضل وصف للغة الأجنبية يمكن تحقيقه من خلال استخدام اللغة الام، لكن قد لايكون ذلك صحيحاً في مجتمع تكون فيه اللغة المحليـــة غير مكتوبة وتفتقر للمفردات التقنية للتعامل مع دقائق القواعد. احتفظ نحاة القرون الوســـطى الأوائل باللاتينية بوصفها لغة التعليم في كتبهم المنهجية، لأنهم أرادوا اتباع خطـــى دونـــاتس Donatus من ناحية(رغم أن قواعده كانت في وقتها من النمط الثاني لأنها كانـــت موجهـــة لجمهور يتكلم اللاتينية)، وفضلوا الحلَّ الذي يجعل طلبتهم قادرين على قراءةٍ الانجيل باللاتينيـــة

بسرعة أكبر من الناحية الأخرى. وكان الفريك Alfric أول من كسر طوق ذلك التـــراث أو التقليد الراسخ في كتاباته من جنوب انجلترا حوالي عام ١٠٠٠ ميلادية . وتمتعت الإنجليزيـــة القديمة وقتها بتراث أدبي مزدهر خاص بها، واستطاع الفريك الاعتماد على جمهور يـــستطيع مسبقاً قراءة لغته الأم. ولهذا السبب قام بترجمة مختصرة للغاية وأعاد ترتيـــب عمـــل برشـــيان Institutiones grammaticae إلى الإنجليزية القديمة، مضيفاً عدداً كبيراً من اللمسات المحلية أثناء ترجمته. وأبدى اهتماماً محدوداً في قواعد لغته الأم لأن ذلك لم يمثل هدفه. ويذكر أن كلاً مـــن اللغتين لها ثمانية أقسام من الكلام فقط، وأن الصيغة غير الشخصية نادرة في كليتهما، وأن تعين الجنس للأسماء ليس متشابهاً دائماً. وعلى الرغم من أن قواعد الفريك كانت شـــائعة للغايـــة خلال القرن الحادي عشر، إلا أن التطور اللاحق للتراث القواعدي الانجليزي قد تجمد بوصول النورمانديين الذين جلبوا معهم وسيلتهم المفضلة التي تعتمد القواعد اللاتينيـــة. و لم تـــستخدم الإنجليزية ثانية بوصفها وسيلة تعليم في دروس اللاتينية حتى نهاية القرن الرابع عـــشر ؛ ومـــع حلول ذلك الوقت، أصبحت اللغات المحلية تحتل موقعها في تعليم القواعد عبر العـــالم الغـــربي برمته.

تميل القواعد التي تهدف إلى إرساء مبادىء عامة أو عالمية للقواعد لأن تكتب في اللغة الأكاديمية شائعة الاستخدام للمجموعة التي صممت من أجلها. ولن تكون هناك حاجة لمثـــل تلك القواعد لأن تكتب في اللغة المحلية إلا إن كان هناك تراث محلي ثابـــت لتعلـــيم القـــراءة والكتابة الدارجة. وكان لدى كل من ايرلندا، وايسلندا وبروفنسيا (مقاطعـــة فرنـــسية الآن) تراث أدبي حيّ دارج، وفي كلٍ من هذه المناطق الثلاث كُتبت قواعد من هذا النمط.

وأقدم ما هو معروف هو الجزء الخاص بمجموعة المبادىء من Auraicept na nEces أي،"أساسيات الباحث"، وهي قواعد في الايرلندية القديمة ربما عادت أقدم أقسامها إلى القـــرن السابع الميلادي. وعلى الرغم من أنها قولبت في نهاية المطاف على شكل ما فعله نحاة القـــرون القديمة المتأخرون من الرومان، إلا أن مبادىء Auraicept مستقلة ومتمحورة حول نفـــسها بشكلٍ فريد. فقد مزجت المفاهيم العامة بتفاصيل خاصة بالايرلندية القديمة ؛ فعلى سبيل المثال وُسع مفهوم الحالة من مجرد ستة في اللاتينية ليشمل حوالي ثمانية وعشرين في الايرلندية القديمة.

وركزَّ القواعديون اللاحقون في المدارس الشعرية (القصائد الخاصة في مآثر الأبطـال) علـى تعقيدات التصريف الايرلندي، وصياغة الكلمات وعلم التراكيب/النحو.

أما في أيسلندا، فقد وسعت النرويجية القديمة نفوذها بسرعة من التعبير عن الساغات (قصة ايسلندية قديمة زاخرة بالأعمال البطولية) الشفوية أصلاً لتشمل أعمال أكاديمية ترجمت من اللاتينية. ومع منتصف القرن الثالث عشر طوع Olafr BÒɹDarson δ محتوى الكتـابين الأول والثالث من كتب دوناتس Ars maior (وبكثير من المبادىء الإضـافية مـن برشـيان والمصادر الأخرى) إلى النرويجية القديمة فيما سمي بالرسالتين القواعديتين الثالثة والرابعة (سميتـا بذلك الاسم بسبب ترتيبهما في مخطوطة هامة تحتوي على أربع رسائل (أبحاث) قواعديـة في عمل وورميانس Wormianus المعروفة بـ *الشيفرة* The Codex (AM242). فقد طوع كـلاً من المفردات التقنية وجوهر المبادىء القواعدّية كي تتلاءم مع حالات ايسلندية مختلفة تمامـاً وبطريقة ناجحة للغاية. وضمَّ تحت عنوان Littera، على سبيل المثـال، BorDarson نقاشـاً مفصلاً للأحرف الرونية، وبدلاً من استخدام مقاطع تقليدية من شعراء اللاتينية لتوضيح المجـاز اللغوي، فقد وجد مقاطع مناسبة من نظم النرويجية القديمة والنظم المسيحية.

وتحتوي الرسالة القواعدية الأولى (البحث القواعدي) المعروفة علـى نحـو أفـضل، وكتبها أيسلندي مغمور من الجيل السابق ، اقتراحاً لإصلاح التهجئة النرويجية القديمة التي تشتق معظم إيحاءها من الألفبائيات الرونية المعاصرة. ويلجأ الكاتب في محاولته تبرير الرموز العديـدة التي يضيفها إلى الألفبائية الرومانية المستخدمة في النرويجيـة إلى وسـيلة المتقـابلين الأدنـين (Minimal Pair) لإظهار فونيمية الأصوات التي يرغب في تمييزها. ورغم أنه يـذهب بعيـداً أحياناً، بحيث يعترف بإدخال عدة بدائل صوتية في ألفبائيته، إلا أن طريقتـه منتظمـة تمامـاً. ويوضح هذا النص الطبيعة النفعية بشكلٍ عميق لمعظم أعمال القرون الوسطى التي تركز علـى اللغة المحلية، وهي نصوص من النمط الثالث الذي ذكر آنفاً. وأثناء معالجة الصعوبات العمليـة مثل الإصلاح الهجائي غالباً ما يتعثر الكتّاب، مثل القواعدي الأول، بتقنيات نربطها بـشكلٍ كبيرٍ بنظرية غايةً في التعقيد الآن، إلا أن التشابه بين استخدام القواعـدي الأول للمتقـابلين الأدنين والتحليل الفونولوجي الحديث محض صدفة. فمن الشائع أن يتطور العلم والتكنولوجيا

بوتائر مختلفة وطرق مختلفة أيضاً ؛ وبشكل مشابه، فغالباً ما تكون هناك صلة واهية للغاية بين "التقنية" اللغوية كما وُجدت في أعمال القرون الوسطى حول الإملاء وقواعد تعلم اللغات الأجنبية، والقواميس، وهكذا دواليك، واهتمامات اللغويات النظرية المعاصرة.

وتعود أولى المحاولات الهامة لكتابة قواعد شاملة حول لغة محلية في القرون الوسطى إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر في بروفنسيا. إن المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها الشعراء التروبادوريون [طبقة من الشعراء الغنائين والشعراء الموسيقين الذين اشتهروا في جنوبي فرنسا وشمالي إيطاليا في القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر بعد الميلاد] قد ولدت حملة محمومة أدت بدورها إلى ظهور مجموعة مما يمكن أن يكونوا شعراء تروباديين في إيطاليا وكاتالونيا لا يلّمون بدقائق وجماليات الاستخدام البروفنسي؛ وفيما بعد، وبعد الغزو الثقافي الالبجنيزي المدمر، احتاج متكلمو البروفانسية الأصليون إلى مساعدة على فهم لغة التروبادورين الأوائل. ومن بين الأعمال الكثيرة نسبياً التي قُدمت لمساعدة هذا الجمهور، نجد Leys d' Amors أكثرها شهرة، وهو بحث حول القواعد والشعر نُشر عام 1356. ويمثل هذا العمل أول وصف منتظم للغة أوروبية محلية في القرون الوسطى، وهو أكثرها دقة في تفصيلاته لأي لغة محلية في القرون الوسطى (إذا ما طرحنا اليونانية واللاتينية جانباً) حتى بداية القرن السادس عشر. إن مخزون المفاهيم القواعدية التي وفرها دوناتس، وبرشيان والصيغّيون يمثل بنية تحتية نظرية مستقلة اُستغلت بشكلٍ حساس. حيث يعترف المؤلف برضى أن البروفنسية تختلف عن اللاتينية بأنها تفتقر إلى مجموعة كاملة من الحالات الواضحة رسمياً، رغم أنه بالامكان، كما يوضح، الإشارة إلى وظيفة الحالة الإعرابية بوضوح تام في البروفنسية ؛ إلا أنه يصر أن الاستخدام البروفنسي وحده هو الذي يعّرف أو يحدد هوية اللغة البروفنسية.

أثار Leys d' Amors درجة متزايدة من الاهتمام في اللغات الأوروبية المحلية مع تقدم القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وعلى خلاف العديد من قواعد عصر النهضة حول اللغات المحلية، فإن قواعد القرون الوسطى حول اللغات المحلية تنتمي قاطبة إلى نطاق القواعد الخاصة لا العالمية، وإلى العملية لا النظرية أو الجدلية. ويتسم موقف علماء عصر النهضة من اللغات المحلية بكثير من التناقض وعدم الوضوح.

٢. ٤ عصر النهضة وما بعده: العالمية والخاصة

لكي يفهم المرء الاختلاف الجوهري بين طبيعة لغويات ما قبل عصر النهضة وما بعده عليـــه أن يضع في حسبانه وجهة نظر - الغريبة للغاية في القرن العشرين - أولئـــك المنـــهمكين في الدراسات الفكرية في القرون الوسطى. يفضل الناس في كافة الأزمان أن يبذلوا جهـــودهم في اكتساب معرفة تكون صحيحة، وثابتة ومستمرة ؛ ومع ذلك، ومن باب المفارقة السطحية، فإن نوع المعرفة الذي يلبي هذه الأسس يتغير من عصر إلى عصر. بحث علماء القرون الوسطى عن مثل تلك المعرفة في العالميات والأبديات – في المبادىء التي تكمن تحت الظواهر الأرضية وتسمو بها، لا في الظواهر الزائفة أو الزائلة نفسها. لقد مثَّل الفكر – المصقول بدراسة المنطق – بالنسبة لهم أداة قيمة تفوق أية وسيلة ممكنة أخرى . وبمجرد أن يصوغ مفكر متعمق كأرسطو مـــثلاً المبادىء المتأصلة في الظواهر الأرضية مثل دورات الحياة في المخلوقات الحية أو حركات الأجرام السماوية، ينحسر دور الملاحظة في توضيح هذه المبادىء الراسخة. ولا يعني ذلك أن مفكري القرون الوسطى لم يكونوا قادرين على الملاحظة، كما تظهر ملاحظات بيد Bede المميـــزة حول المد والجزر أو التيارات البحرية،بأنها بدت لهم مجرد طريق غير مـــضمونة للوصـــول إلى المعرفة مقارنة بتلك التي يعرضها المنطق والعلوم الرياضية. وتوسعت وجهة النظر هذه لتـــشمل اللغة أيضاً، وظهر ذلك جلياً في التمييز بـــين القواعـــد التأمليـــة grammatica Speculativa والقواعد الوصفية grammatica Positiva. و لم تُدرك مضامين هذا التمييز إلا جزئياً في البداية، وضمت العديد من قواعد القرون الوسطى المتأخرة مثل Leys d' Amors عناصر مـــن كـــلا النموذجين. إلا أن هاتين الطريقتين في دراسة اللغة قد افترقتا بشكلٍ متزايد وبوضـــوح جلـــيّ خلال القرن السادس عشر وما بعده،حيث يمكن للمرء أن يميز منهجين مختلفين تماماً في دراسة اللغة: "المنهج الخاص" ويركزَّ على الظواهر الفيزيائية التي تميز اللغات، ويوازي بشكلٍ وثيقٍ في طرق درسه واكتشافاته العلوم البيولوجية حديثة الظهور ؛ والمنهج "العالمي"، الذي – يركز على المبادىء الكامنة تحت اللغة – استمر في اشتقاق الكثير من إلهامه وطرقه من الفلسفة ومن المنطق خاصة. واتسمت اللغويات منذ عصر النهضة بالتفاعل المستمر بين هذين المنهجين وتناوبهمـــا على شكل منافسة مفتوحة بين المدارس المتعارضة أحياناً ، وعلى نحو أكثر صقلاً ضمن عمـــل

أكاديمي بنفسه أحياناً أخرى. وعادةً ما طغى منهج بنفسه على تيار الفكر اللغوي الأساسي، أما المنهج الثاني الذي كان يزدريه لغويو تيار الفكر الأساسي فكان يضمحل وتغذيه مجموعة متمركزة حول ذاتها أو مجموعات صغيرة بعيدة جغرافياً وفكرياً عن المركز. ورغم المساويء التي تحدثها الاستمرارية المشلولة للتراث التحتي – لأن العديد من البصائر تُنسى خلال فترة الرقاد هذه، وغالباً ما ينتج عن التباعد الجغرافي علماء معزولون يكرر الواحد اكتشاف الآخر – إلا أنه ينهض ثانية وبشكلٍ ثابتٍ ليمثل تيار الفكر الرئيسي. ومنذ عام 1500 تناوب تركيز البحث اللغوي بين المنهج الخاص والمنهج العالمي بفترات تعاقبت كل مائة وخمسين عاماً تقريباً. إن تقسيم تاريخ تطور اللغويات منذ عصر النهضة بفترات يتراوح طولها حوالي قرن من الزمن سيطمس استمرارية كل منهج. فعوضاً عن ذلك، دعونا نتناول المنهج الخاص أولاً وبعد ذلك العالمي ونتفحص كل منهما بالترتيب.

٢. ٥ اكتشاف المنهج الخاص

ربما شكل البحث المنظم المتزايد عن الخاص في اللغة السمة الأكبر في لغويات ما بعد القرون الوسطى الغربية. ففي حين تناظر التمييز بين اللغويات النظرية/التأملية واللغويات الوصفية في العصور الوسطى المتأخرة مع تلك التي بين علوم القرون الوسطى والتكنولوجيا بشكلٍ عامٍ، فإن ذلك التمييز لم يعد صالحاً منذ عصر النهضة. وتم استبدال وجهة نظر القرون الوسطى في أن الظواهر الأرضية الزائلة لا تنطوي على نظام إدراكي وبالتالي لم تكن جديرة بالدراسة باليقين المتزايد في أن الانتظامات كانت موروثة في ظواهر العالم المادي غير المنتظمة وحتى العشوائية ظاهرياً . لقد تكرر نظام الكون على الأرض:حيث بدأ البحث فوق الكرة الأرضية عن النظام والانتظام اللذين ارتبطا مسبقاً في عالم السماء اللامادي فقط .و اقترن الاهتمام المتزايد الذي كُرس للعالم الطبيعي بتقدم القرنين الخامس عشر والسادس عشر بنشوء اهتمام متزايد في اللغات الخاصة وسماتها الخاصة. وعوضاً عن التركيز عما يمكن أن يكون موجوداً في اللغات كافة، بدأ الباحثون فحص السمات التي اختلفت فيها لغة عن أخرى. واُعتبر العنصر الدلالي - الذي افترض أنه عالمي - أمراً بديهياً عندما أدرك العلماء درجة تعقيد وتنوع المظاهر المادية للغة - العنصر الذي "تجسّدَ "المعنى فيه كما صاغها علماء القرون الوسطى. وقد ظهرت

الأنظمة المعرفية الحديثة الصوتيات، والفونولوجيا، والصرف وفقه اللغة التاريخي والمقارن جميعها نتيجة وجهة النظر الملحة الحديثة التي تحاول إيجاد نظام في المظاهر المادية للغة.

فعلى المستوى الأساسي جداً أصبحت القواعد الوصفية حاجة ماسة. وبدأت اللغات الأوروبية المحلية تزحف فوق أنطقة كانت تحتكرها اللاتينية من قبل: مثل القوانين وسجلات تاريخ الأحداث أولاً، وبعد ذلك الكتب العامة وكتب التسلية؛ وأخيراً، تمت كتابة البحث الأكاديمي نفسه في اللهجة المحلية أو اللغة الوطنية القياسية حديثاً. وحالما لم يعد تعلم القراءة والكتابة ينطوي على اتقان اللاتينية، أصبحت اللغة المحلية مهارة متوفرة لنطاق أعرض من السكان، ونمت سوق تجارية كبيرة مختصة بالقواميس والكتيبات المتخصصة بتهجئة اللغة المحلية خلال القرن الخامس عشر. وكانت القواعد حاجة أقل ماسة ؛ وقصد من الترجمات المحلية لعمل دوناتس Ars minor التي تزايدت في القرن الخامس عشر أن تساعد الطالب بشكلٍ كبير على مقارعة لاتينيته. ويعتبر عمل جون بارتن Donat Francois Johon Barton حوالي ١٤٠٠ ميلادية وهو اقدم قواعد معروفة للفرنسية ، استثناءً ملحوظاً ؛ إلا أنه قُصد منه أن يساعد متكلمي الإنجليزية على التمكن من النطق الفرنسي السليم. وكُتبت معظم القواعد في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، مثل عمل بارتن، لمساعدة الأجانب لا المتكلمين الأصليين. فكم مرة يرجع فيها متكلم اللغة إلى قواعد لغته الأم اليوم يا ترى؟

كانت هناك بعض الصُدف، على أية حال، كتبت فيها القواعد لغرض مختلف تماماً عما ذكرناه: وهو إظهار أن اللغات المحلية ،على سبيل المثال، (رغم كافة المزاعم المضادة) كانت قادرة تماماً على أن تصاغ ضمن قواعد مثل اللغات الكلاسيكية. ففي إيطاليا، على سبيل المثال، وجد العديد من الناس صعوبة في تصديق أن اللاتينية الكلاسيكية أصبحت اللغة اليومية للشارع الروماني. فقد جادلوا – مستخدمين الوضع اللغوي لزمنهم كإنموذج – أن لغة خُطب سيسريو Cicero في اللاتينية كانت غاية في التعقيد ومصطنعة و لم تكن معروفة إلا لمجموعة صغيرة من العلماء المتمكنين من القواعد ؛ واقترح هؤلاء أنه ربما استخدم سيسرو في لغته اليومية(منزله) اللغة المحلية أي، الإيطالية نفسها أو أي شكل مبتكر منها لا يمتلك "قواعد" اللاتينية. ولدحض وجهة النظر هذه، كتب ليون باتيستا البرتي Leon Battista Alberti المتعدد

الثقافات والمعارف (من بين كتاباته المتعددة أعمال حول البصريات وفـــن العمـــارة) قواعـــد مقتضبة عن الإيطالية (حوالي 1450 ميلادية، ولكنها لم تُطبع حتى عام 1973) بغرض إظهار أن للإيطالية قواعد أيضاً. وكذلك اظهر النحوي الألماني عظيم التأثير جوهانز كلوس أن قواعـــده الشاملة (1578)، التي اعتمدت على أعمال لوثر Luther، تظهر خطأ وجهة النظر الـــشائعة في أن اللغة الألمانية كانت غاية في الصعوبة ولا تحكمها أية قواعد نحوية. وفي الواقع، تعمد جعـــل قواعده مشابهة لقواعد اللاتينية ما استطاع إلى ذلك سبيلا كي يجعل الطبيعة النظاميـــة للغـــة الألمانية أكثر دهشة ولفتاً للانتباه. وهذا الطموح – الذي لم يكن محصوراً بكلوس فقط بـــأي شكلٍ من الأشكال، ميَّز العديد من القواعد الحديثة للغات المحلية عـــن ســـلفها في القـــرون الوسطى. وفي حين أُلفت الأعمال المبكرة لتحقيق غرض عملي في الذهن، و لم تقع في شـــرك اللاتينية في أغلب الأحيان فإن العديد من قواعد عصر النهضة، المتعلقة باللغات الأوروبية أو غيرها من اللغات الأكثر غرابة، قد كتبت بقصد إظهار "الانتظام" المتأصل في تلك اللغة قيـــد الدرس. إن معادلة "الانتظام" بقواعد اللاتينية أصبح واضحاً بشكلٍ متزايد مع انتـــهاء القـــرن السادس عشر، وهكذا نجد أن القواعد المتأخرة للغات المحلية غالباً ماكانـــت مقيـــدة بـــشكلٍ مصطنع بالإنموذج اللاتيني أكثر من سلفها من القواعد - وتلك حالة يطغى فيها التراث العالمي على الخاص، مما يعرض الأخير للخطر أو الأذى.

و لم تنحصر الصحوة اللغوية الموجودة حديثاً باللغات المحلية الأوروبية فقط. وكانت اليونانية إلى ذلك الوقت لغة مغمورة(يتعذر بلوغها) مثل أبعد لغة آسيوية تقريباً ؛ أمـــا الآن، وبوصول العلماء الإغريق الراغبين في تعليم لغتهم إلى إيطاليا مـــن القـــسطنطينية ، أضـــحى بالإمكان أخيراً دراسة أفلاطون والعهد الجديد في اللغة الأصل. وبدأت قواعد اليونانية، في اللغة اليونانية أولاً مثل قواعد قسطنطين لاسكاريس Constantine Lascaris ومانويل كرايسولوراس Manuel Chrysoloras، وبصورة أكثر سهولة في اللاتينية، مثل الـــدس مـــانيوتيتس Aldus Manutius، تتدفق من دور النشر الإيطالية. ولكن ماذا عن اليهودية/العبرانية، ثالثة "اللغـــات المقدسة" ؟ لم يكن هناك سوى عدد قليل من العلماء –المتحمسين لتحمـــل إحتقـــار وإزدراء الكنيسة لهم – يبحث عن يهود ربما أقنعوهم بأن يعلموهم اليهودية/العبرية. كانت الصعوبات

التي تكتنف تعلم اليهودية/العبرانية جمة .فلم تتمثل الصعوبة في استحالة وجود أساتذة مناسبين ومتعاونين في أغلب الأحيان – لأنه لا يتوقع من يهود القرن الخامس عشر أن يكونوا على دراية جيدة باليهودية/العبرانية، وكان العديد من أولئك الذين تمكنوا من معرفة اليهودية/العبرانية يشكون بدوافع ممن يمكن أن يكونوا طلبتهم – وحتى عندما وُجد الأستاذ – لم تكن هناك كتب منهجية مستخدمة. فقد كانت كتب القواعد الأساسية المستخدمة ضمن التجمعات اليهودية مكتوبة باليهودية/العبرانية وذلك أمرٌ طبيعي، تماماً مثلما كانت قواعد اللاتينية مكتوبة باللاتينية، وقواعد اليونانية البيزنطينية باليونانية، وهكذا دواليك. و لم يكن ممكناً الوصول إلى مثل هذا النوع من القواعد العبرانية لإنسان ليس لديه أي معرفة بتلك اللغة. وترك كونراد بيلكن Conrad Pellican ،عالم الإنسانيات في عصر النهضة، لنا وصفاً حياً لصراعه في تعلم العبرانية عام ١٥٠٠ .استطاع بصعوبة الحصول على نسخة من كتاب الأنبياء وسفر المزامير مكتوبة بالعبرانية/اليهودية، وكان يعلم نفسه العبرانية بجهوده الخاصة من خلال مقارنة النص العبري بالترجمة اللاتينية. وبما أنه يعرف أن صيغة الفعل البالغة الأهمية في اليونانية واللاتينية هي صيغة الشخص الأول المفرد في الزمن الحاضر، فقد بدأ يبحث عن صيغ الشخص الأول في النص، ولكنه لم يجد سوى قلة قليلة للغاية. وفي يأسه لجأ إلى متعلم زائر لجامعته، وهو توبنجين Tubingen، عالم الإنسانيات الألماني المشهور وهيبرست جوهانز روشلين Hebraist Johannes Reuchlin الذين أخبراه - بابتسامة ساخرة - كما يخبرنا بيلكن متهكماً، أن الشخص الثالث هو الأهم في العبرية وليس الأول. لقد عمل بيلكن بجهد لعدة شهور دون أن يعرف هذه الحقيقة الأساسية، حقيقة من أولى الحقائق التي يتعلمها مبتدىء تعلم العبرية اليوم. تعطينا هذه، ونوادرَ أخرى مماثلة ،فكرة ما عن الصعوبات التي ينطوي عليها الإلمام البسيط بالعبرانية. وتلك حالة زاد من تفاقمها طرد اليهود من عدة أصقاعٍ من أوروبا في ذلك الوقت. وفي العقود الأولى من القرن السادس عشر تم طبع عدة قواعد عبرية بالعبرية. أشهرها تلك التي ألفها موشي قمحي Moshe Qimhi وعلّق عليها إلياس لفيتا Elias Levita، وكانت هناك عدة محاولات وبكافةِ الطرقِ المتاحة لجعل هذه القواعد سهلة الفهم والاستيعاب للمبتدئين تماماً. تمثل أحد الحلول في طبع مفتاح للألفبائية، وكان الاعتقاد أنه بمجرد أن يلمَّ الطالب بالألفبائية، سيكون، عندئذ، في طريقه الصحيح للإلمام بمحتويات الكتاب ؛ في حين أخذ حلٌ آخر شكل طبع ترجمة لاتينية

تقابل النص العبري (أو، كما فعل سيبستيان مونستر Sebastian Munster في تحريره وترجمته لقواعد قمحي، حيث طبع النسخة اللاتينية في النصف الأول من المجلد، والعبرية الأصلية في النصف الثاني). و لم تصبح العبرية لغة ممكنة المنال إلا عندما ألف روشلين Reuchlin قواعد عبرية في اللغة اللاتينية (De rudimentis hebraicis,1506)، وذلك عمل جيد التصميم ومطبوع بشكلٍ أنيق ويتبع بدقة الأساليب التقليدية في وصف العبرية التي طورها القواعديون العبرانيون – /اليهود وفيما بعد عمل نحاة العبرية جاهدين على جعل العبرية تنسجم حيثما أمكن بالإنموذج اللاتيني المألوف: حيث تعتبر قواعد نيكولاس كلينارد Nicholas Clenard (1529) وهو خليفة روشلين في شعبيته، أكثر لاتينية (تأثراً بالإنموذج اللاتيني) من سابقتها.

ومع انطلاق رحلات الاستكشاف بعيداً عن الوطن ، واجه الأوروبيون عدداً ضخماً من اللغات الغريبة. ووصلت تقارير عن لغات الشرق الأقصى. وبعد ذلك عن لغات الشواطيء الأفريقية والأمريكتين وآسيا تدريجياً بعودة التجار والقباطنة بكتب عبارات ثنائية اللغة، وأرسلت البعثات التبشيرية نسخاً عن قواعد تلك اللغات وترجماتها الأولى للإنجيل والأدب الديني. ففي حين كانت العبرية ما زالت في بداية القرن السادس عشر لغة نادرة وصعبة الاكتساب، نجد بعد قرن تقريباً أن قواعد اليابانية، والتوبية ولغات أخرى لم يُحلم بها من قبل أصبحت قيد التداول (بشكل محدود بالطبع). واحتاج الأوربيون الذين تطلب عملهم سفرهم لأمكنة بعيدة لقواعد وقواميس بالطبع بوصفها مساعدات عملية ؛ أما في الوطن فقد استخدم الناس هذه الأدوات بالإضافة للأعداد المتزايدة من ترجمات الكتاب المقدس، مصدراً لمادتهم اللغوية. والآن، وقد فاق نطاق اللغات تصور أي إنسان، سادت الفوضى. فمن سيعيد النظام؟ إن اكتشاف بابل ، معضلة ورّثها القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر، كان مصدراً لعدة محاولات حاولت إيجاد حل، بعضها من داخل التراث الخاص، وبعضها من التراث العالمي. حاول العلماء الذين يعملون ضمن التراث الخاص نفسه أن يتفقوا مع اللغات نفسها من خلال طرح الأسئلة التالية: كم من اللغات كان هناك ؟ ماذا كانت تسمى ؟ من تكلمها ؟ ما هي الألفبائية التي استخدموها ؟ ماذا عن تاريخها ؟ وسلّمت اللغات نفسها للتصنيف الفئوي والوصف الدقيقين، كما هو الحال بالنسبة للنباتات والحيوانات. وفي الواقع، يعود الفضل لعالم

الطبيعة السويسري الدكتور كونراد جيسنر Conrad Gesner، الذي أضاف معجمـــاً للغـــات باسم (مثيرديتس Mithridates، 1555) ضمن سلسلته من المعـــاجم الموســـوعية،والتي كـــان معظمها مرُتباً ألفبائياً ،وقدم فيها معلومات مقتضبة عن كافة النباتات، والحيوانات، والصخور، و المعادن، والمخلوقات البحرية المعروفة وغيرها. وفي Mithridates، الذي سمي على اسم ملك بونتس Pontus الإسطوري الذي استطاع وفق رواية هيرودتس Herodotus أن يتحدث مـــع رعاياه في كل من الاثنتين والعشرين لغة التي كانت مستخدمة في مملكته ؛ يعطي جيسنر وصفاً مقتضباً عن موقع كل لغة وتاريخها الخارجي، بالإضافة إلى أية حقائق أخرى معروفة له. فقـــد وُصفت الإنجليزية، على سبيل المثال بأنها الأكثر هجانة وتحريفاً بين اللغات، حيث يعود أصلها لمزيج من البريطانية القديمة مع السكسونية، ولاستعارات معجمية مـــن التجـــار الفرنـــسيين، واللاتينية في عصر جيسنر نفسه. وفي نهاية المجلد، هناك جدول مطوي كتبت عليـــه صـــلوات الرب في اثنتين وعشرين لغة. كان جيسنر الأول في سلسلة طويلة من علماء الطبيعة الذين كان لديهم اهتمام في جانب اللغة "الخاص" .

غالباً ما اتخذ شكل جمع المادة البحثية بين لغوييّ القرن السادس عشر شكل تجميـــع روايات صلاة الرب في أكبر عددٍ من اللغات. وقد جمعت روايات جسينر الاثنتين والعـــشرين جميعها من لغات العالم القديم، بحيث لم تتعدى حدود بلاد فارس واثيوبيا ؛ ومع حلول ١٥٩٣ استطاع ميجسر هيرونيموس Megiser Hieronymus جمع حوالي أربعين لغة، بما في ذلك عدة لغات اسكندنافية وسلافية، ولغة هنود حمر واحدة، والصينية . وتنامى البحث الكثيف بشكلٍ كبير خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ووصل ذروته في المجلد الضخم الذي ضم أكثر من ألف لغة ونشره ج.س. اديولنغ J.C. Adelung في مجلده Mithridates (وتلـــك تـــسمية مقصودة على اسم كتاب جيسنر) عام 1806. وهيأت مثل هذه المجلدات الـــضخمة المـــصدر الأساسي لمادة البحث لمن يرغب في أن يكون لغوياً تاريخياً أو مقارناً. وعلى الرغم من اقتضابها، فإن صلوات الرب احتوت على مفردات كافية سمحت لبعض اللغويين الشجعان اســـتخلاص نتائج أولية حول العلاقات بين اللغات ، إلا أن نطاق الأشكال القواعدية فيها كـــان محـــدوداً

للغاية لدرجة أنه من غير المدهش أن المقارنات الصرفية المنتظمة كانت نادرة الحدوث حتى تعود العلماء عادة العمل على نصوص أطول.

توضح التجميعات من عينات اللغات والمعاجم الموسوعية للغة مثل معجم جيسنر أو عمل كلود دوريـــه Claude Duret: Thresor de I'histoire des langues de cest univers عام (١٦١٣)، في بداية القرن اللاحق، الحماسة الجديدة لتنوع اللغات الكبير - وتلك ظاهرة اعتبرت سابقاً مجرد ازعاج، أو عقوبة إلهية، وليست جديرة بالاهتمام الجاد. إنها تدل على ظهور الاهتمام في تلك السمات/المعالم التي تميز لغة عن أخرى، في الشكل لا في الوظيفة المعرفيـــة أو التخاطبية: وتلك نقلة جذرية في الفهم (الأدراك).

٢. ٥. ١ الشكل في اللغة: ظهور الصوتيات والمورفولوجيا (الصرف)

كانت هناك نقلة أدق ولكنها ليست أقل جوهرية تحدث في طريقة دراسة اللغـــة. فلـــم يعـــد العنصر الدلالي، "الروح" المجسده في "جسم" الكلمة، مهماً للغاية ؛ حيث اعتبره اللغويون الذين يعملون على التراث الخاص أمراً مفروغاً منه في البداية، وبعد ذلك تم تجاهله وذبل وتـــوارى في الخلفية. وطغت عليه مظاهر الكلمة الشكلية.

والصوتيات هي أحد حقول البحث الذي خضع لتطور مذهل،على الرغم من أنـــه كان متقطعاً أو مشتتاً، منذ منتصف القرن السادس عشر.وعلى الرغم من أن أسس تـــصنيف الأصوات نطقياً كانت موجودة في عمل برشيان Institutiones grammaticae، إلا أن ذلـــك نادراً ما لوحظ خلال القرون الوسطى. وليس ذلك مدعاة للدهشة. وبغض النظر عن القيمـــة المتواضعة التي أعطيت لهذا الجانب المادي من الكلمة، لم يكن هناك سوى دافع عملي بـــسيط لدراسة أصوات اللاتينية، المعروفة فقط من الصفحة المكتوبة. وفيما بعد في أواخـــر القـــرون الوسطى، ومع الوصف الأول للغات المحلية، أصبحت الأصوات توصف بانتظام. شكلت الرغبة في تسجيل الأصوات الخاصة بلغة محلية أحد الأهداف ؛ في حين تمثل الهدف الثاني باكتـــشاف تصنيف اليهودية/العبرية التقليدي للصوامت وفق أمكنة نطقهـــا: الحلقيـــات، والحنكيـــات، واللسانيات، والسنيّات، والشفويات. بدأ العلماء الغربيون الآن تجارهم بتطبيق هذه التصنيفات على مزيد من اللغات المعروفة لهم. وللأسف، فعلى الرغم من الوصف الدقيق للفظ المتـــوفر في

قواعد العبرية كذلك الموجود في عمل اجاثيوس جودا سيروس Agthius Guidacerius (1529) واغسطس سيباستانيوس نوفيزونس Agustus Sebastianus Novzenus (1532) إلا أن معظم النحويين لم يذهب إلى أبعد من التقسيم الروتيني البسيط المتمثل بوضع كل حرف في فئة أو أخرى من الفئات الصوتية. إلا أن الدراسة المفصلة لعملية النطق قام بها، عادة، أولئك الذين يتمتعون بمقدره تحمل عملية ، أمثال أساتذة الصم والبكم – وليس النحاة .

وقدمت التوصيفات التشريحية المتوفرة حديثاً لأعضاء النطق كتلك التي قام بها عالم التشريح الايطالي فابريكس اب اكوابينودنت Fabricus ab Aquapendente قاعدة متينة لمثل ذلك العمل. حيث طبع فابريكس ثلاثة أعمال لها علاقة بالصوتيات وهي: De Visione، البصر، و Voce، والصوت، و auditu والسمع عام (1600) يحتوي على وصف مفصل لتركيب الحنجرة وحركتها ووظيفتها ؛ و De locutione et eius instrumentis "الكلام وأعضاؤه" عام (1624)، وهو عبارة عن ملخص تقليدي بسيط لمبادىء الصوتيات المعاصرة مع بعض التداخل مع الصوتيات النطقية ؛ و De brutorum loquela (1624)، وهو مقارنة بين أنظمة التخاطب عند الحيوان واللغة الإنسانية.

إن العمل العظيم ليفابركس وعلماء الصوتيات مثل دين جاكوبس ماثيا Dane Jacobus Mathia من أرهوس بعنوان: (1586, de literis) والهولندي بطرس مونتانوس Petrus Montanus بعنوان: (1635 De spreeckonst) بقي خارج ميدان البحث اللغوي الأساسي عامة لدرجة أن مجرد قلة قليلة من اتباعهم كانوا مدركين لبصائر هؤلاء الأوائل. ومع نشر عمل وليام هولدرWilliam Holder بعنوان: Elements of Speech عناصر الكلام (1669)، وجون واليس John Wallis بعنوان: Grammatica Linguae anglicanae (1653) وجون ولكيتز John Wilkins بعنوان: Essay towards a real character and a philosophical Language "مقالة نحو شخصية حقيقية ولغة فلسفية"عام ١٦٦٨، تم تدشين تراث إنجليزي للصوتيات ؛ ولكن ،حتى ذلك الوقت، استمرت بعض المفاهيم الأساسية مثل الجهر والأنفية تُحير العديد من الكتاب حتى تأسست الصوتيات كنظام معرفي معترف به، بعد اكتشاف السنسكريتية والعمل الهندي حول الصوتيات.

أما المورفولوجيا (الصرف) فقد كانت تُعتبر جانباً رسمياً من اللغة ودُرست بثقة أكبر. ونادراً ما استغلت فكرة إمكانية اشتقاق شكل من آخر قبل عصر النهضة. فقد اُعتبرت كل كلمة وحدة دلالية مستقلة بنفسها ؛ و لم يكن هناك أي شك حول إمكانية عزل أو فصل وحدات أصغر كما يؤكد ذلك غياب مصطلحات تتناظر مع "الجذر"، و"الجذع" و"الزائدة" وهكذا دواليك. وهكذا لم تكن هناك قواعد توليدية كتلك المعروفة في قواعد ما قبل النهضة: فلكي تصوغ الزمن الناقص في اللاتينية،مثلاً، خذ الجذع الحاضر، وأضف – ba – والنهايات الضميرية (الشخصية). بل عوضاً عن ذلك، يُتوقع من الطالب أن يلاحظ الأنموذج الموضوع في جداول التصريف، ويطبق القياس على أي فعل يمكن أن يصادفه فيما بعد. وبالمقارنة، ركّز علماء عصر النهضة بدقة أكبر على الشكل. ويزودنا عالم الإنسانيات الأسباني انطونيو دي نيبريجا، Antonio de Nebrija، الذي كتب أول قواعد للأسبانية عام (1492) بمثال عن هذا المنهج في قواعده اللاتينية (1481). فعوضاً عن أن ينصح الطالب المسكين بأن يحفظ عن ظهر قلب صفحات من تصريف الأفعال، فإنه كتب فصلاً يلخص فيه صياغة الأزمنة. حيث يبدأ بالزمن الحاضر الذي يقول أنه لا يشتق من أي زمن آخر ؛ بل إن الأزمنة الأخرى تشتق منه. ويشتق الزمن الناقص (غير التام) إما من الشخص الثاني المفرد في الزمن الحاضر بإسقاط S – وإضافة bam - كما في: amas → ama →amabam أو من الشخص الأول، بتغير O – النهائية إلى e – وإضافة bam- مثل Lego → lege → logebam. نجد هنا قاعدة تحاول "توليد" صيغ الفعل اللاتيني – قاعدة من نمط نادراً ما وجد في العصور القديمة أو الوسطى. ومع ذلك فإن نيبريجا يعمل فقط على الصيغ الموجودة (هنا الشخص الأول والثاني المفرد في الزمن الحاضر) وليس، كما نتوقع، على الجذر أو الأصل. وبقى الأمر كذلك حتى تم التواصل مع مفهوم الجذر الهندي في بداية القرن التاسع عشر. يتطلب افتراض شكل والعمل عليه بدون وجود مستقل له في اللغة درجة من التجريد كانت غير مألوفة في بداية الحقبة الحديثة. وتوجد القواعد المشابهة لقواعد نيبريجا، التوليديه من حيث المبدأ،و المعتمدة دائماً على أشكال موجودة، في أكثر القواعد تداولاً وانتشاراً اليوم. وبالطبع، هناك العديد من الكتاب الذين استمروا بالاعتماد على الجداول التصريفية.

ولكن ما الذي سبب التغير في التصور الأساسي مما حدا بنيبريجا والعديد من الأخرين أن يبدأوا التفكير بأشكال الكلمة وفق شروط قواعد توليدية ؟ فعلى الرغم من أن عدداً من العلماء القدامى ، وبخاصة دايوميدز Diomedes وباليمون Palaemon ، قد استخدموا قواعد من هذا النمط بشكلٍ مبعثرٍ وغير منتظم، إلا أن الأدوات الأساسية لتحليل الكلمات الصرفي قد طورت خارج تراث العالم الغربي؛ في الحقيقة بين العلماء العرب واليهود. وبما أنهم مدركون لشكل الكلمة منذ وقت أقدم بكثير، (تماماً كما كان عليه الحال بالنسبة للعلوم الطبية والتشريحية التي كانت متطورة للغاية لديهم) فقد بذل العلماء الساميون جهوداً كبيرة لإماطة اللثام عن صرف لغتيهما. ومع حلول القرن العاشر أصبح مفهوم "الجذر"، بوصفه أساسياً صامتياً لايتبدل وبمحتوى دلالي أساسي ثابت، متطوراً للغاية. فعلى سبيل المثال، يمكن للجذر ك-ت-ب، الذي يحتوي على مفهوم "الكتابة"، أن يصبح من خلال إضافة الزوائد المختلفة واحداً من عدة كلمات مختلفة: في العربية "كتاب"، و"مكتبة" و"كتبت" و"سأكتب" وهكذا دواليك. إلا أن ك-ت-ب بنفسها تمثل تجمعاً صامتياً مجرداً لا يلفظ وبدون أي وجود مستقل في اللغة. أسس العلماء العرب واليهود منذ وقت مبكر عادة الإشارة إلى الجذور في أبسط الصيغ الفعلية أي، صيغة الشخص الثالث المفرد في الماضي: كَتَبَ. إلا أن العلماء الغربيين لم يفهموا سوى نصف هذا التقليد. فقد تصوروا أن "كَتَبَ" نفسها هي الجذر، واستنتجوا أن الجذور الفعلية في أية لغة ستكون مطابقة للصيغة القوية (الاستشهادية) للكلمة. وهكذا نجد أن amo في اللاتينية،و j'aime في الفرنسية – "الموضوع" أو الشكل الأساسي – قد حددت على أنها صيغ جذور. وهكذا تم إساءة فهم طبيعة الجذر المجرد في التحليل الصرفي السامي تماماً. ومع ذلك، فإن نصف الفهم هذا لمفهوم الجذر قد سمح بوصف أكثر اقتصادية للتحليل الصرفي المعقد في اللاتينية واليونانية أكثر مما كان ممكناً حتى حينه.

٢. ٥. ٢ الخطوات الأولى نحو اللغويات التاريخية: الفرضية الهندية - السثيانية وظهور فقه اللغة المقارن

وبمجرد أن توفرت الأدوات الأساسية لأي تحليل لغوي شكلي - بعض المفاهيم الأولية من الصوتيات المنطقية والمورفولوجيا - فإنها عملت بوصفها الوسائل التي مكنت الناس من أن

يبدأوا البحث في التطور التاريخي للغات ودرجة تقاربها. وبتزايد درجة إدراك العلمـــاء لتنـــوع اللغات وكثرتها في العالم - بعضها يعود إلى عهد سحيق في القدم - أصبحت مـــسألة إعـــادة تقييم علاقات اللغة أمراً ملحاً. فهل انحدرت كافة اللغات من العبرية كما كان يُعتقد خـــلال القرون الوسطى ؟ أم أن لغة البشرية الأم قد ضاعت في بابل ؟ تتبع ناطقو الإيطالية بثقة أصل لغتهم عبر الأتروريه [٢] فاليونانية ومن ثم العبرية ؛ أما الأوربيون في شمال الألب فكانوا أكثـــر تردداً في ذلك. وأظهر أحدهم وهو، غوروبس بكانوس Coropius Becanus، أن البراهين التي تقدم عادة لإثبات الطبيعة الأصلية البدائية للعبرانية تنطبق بشكلٍ أفضل على لغته الفلمنكية في عمله،(Hermathena, 1580). وأصبحت دراسة أصول الكلمات، حيث تركـــز الآن بـــشكلٍ متزايدٍ على المقارنة بين الأشكال بدلاً من المعنى، أداة فعالة في البرهنة على صـــحة أو زيـــف فرضية بعد أخرى، وأصبح المؤلفون يتفاخرون في عدد اللغات التي اعتمدوا عليها في توضـــيح مفردات لغتهم. ومع حلول 1597، نشرت عدة صفحات من كلمات فارســـية في المنوعـــات اللغوية Bonaventura Vulcanius تحت عنوان أبجدية القوطيين ولغتهم. وعلى هذه القاعـــدة، طوّر كلوديوس سالماسيس Claudius Salmasius (المعروف لدى المؤرخين بسبب كراسته التي قدمها دفاعاً عن الملك تشارلز الأول، والتي أقحمته في معركة كلامية مع الـــشاعر ميلتـــون) النظرية الهندية – السثيانية، التي تعتبر أصل الفرضية الهندية – الأوربية الحاليـــة. ووفـــق هـــذه النظرية، الموضحة في عمل حول مكانة اللهجات اليونانية De hellenistica (1643) تنحـــدر اللاتينية، واليونانية والفارسية واللغات الجرمانية كلها من أصل مشترك مفقـــود. ولتوضـــيح ذلك، استخدم سالماسيس طرقاً مألوفة لنا من فقه اللغة المقارن في القرن التاسع عـــشر منـــها: "مقارنة الأشكال الشقيقة" كما في اليونانية Pater، والألمانية Vater، والفارسية badar (كلـــها تعني أب) ؛ و "التناظرات الفونولوجية" مثل حقيقة امتلاك اللغات الجرمانية بانتظـــام h – في البداية بالمقابل – c في اللاتينية كمـــا في الإنجليزيـــة القديمـــة heafod، والدانمركيـــة hoffuit، والهولندية hoofft للاتينية caput (رأس) ؛ و"إعادة البناء أو التركيب" ("الترسيس"، كما عندما يَستخدم عدد من الصيغ الشقيقة – اليونانية pente , pempe و penke، واللاتينيـــة quinque

والألمانية funf، والإنجليزية القديمة ffif، والهولندية vijf، والفارسية bengh – في محاولته إعـــادة تركيب أو بناء صيغتين أساسيتين ممكنتين fynf/fenfو fengh.

أدى عمل سالماسيس إلى ظهور جيل من الدراسات المقارنة والتاريخية الدقيقة. حيث أسس العالم السويدي جورج ستيرنهليم George Stiernhielm ،معتمــداً علــى اكتــشافات سالماسيس ،بعض المبادىء الهامة الفعالة لتطوير اللغويات التاريخية في مقدمة طبعتــه للإنجيــل القوطي عام 1671 ؛ حيث قدم أسساً ومعاييراً لتحديد درجة الصلة بين اللغات، ووضـــحّ أن التغير اللغوي أمراً حتمياً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار البعد الجغرافي أو البعد الزمني (وذلك تأكيد ذو مضامين مدمره بحيث لا توجد هناك أدنى فرصة في الحصول على لغة البشر الأولى شـــكلها الأصلي)، ووسع قائمة سالماسيس من اللغات السثيانية لا لتشمل اللاتينية، واليونانية والجرمانية والقوطية والفارسية فحسب، بـــل مـــا يـــسمى الآن اللغـــات الرومانـــسية، والـــسلافونيه والكلتية/السلتية، في حين استثنى بوضوح الهنغارية والفنلندية، والإستوانية واللابية.

وصلت الفرضية الهندية - السثيانية أوج تطورها في عمل ستيرنهليم. ومع ظهورهـــا، كانت هناك ردة فعل ضد التوكيد المبالغ فيه لأوجه التشابه بين الفارسية واللغـــة الألمانيـــة ؛ وعلى أية حال، فإن انتباه مركز البحث كان يتحول ثانية إلى القواعد العالمية. ومع نهاية القرن، عاد ليبتز Leibniz ثانية إلى الفرضية أحادية الأصل، وافترض أن درجة الصلة اللغوية مرتبطـــة بدرجة القرب الجغرافي. وبناءً على ذلك، جمع كافة اللغات الأوروبية (الجافية/الجيفيـــة) معـــاً، متجاهلاً عدم التشابه الأساسي – الذي ميزه أو أقره ستيرنهليم – بـــين اللغـــات الفنلنديـــة – الأوغرية من جهة واللغات الهندية – الأوربية في أوروبا من جهة أخرى ؛وضم اللغات غـــير – الهندية – الأوروبية كالتركية والتتارية بين اللغات الجافية/الجيفية لأنها محكية في أوروبا في حين استبعد بعض اللغات الآسيوية – رغم أنها هندية – أوروبية – كالفارسية مثلاً. ومع لينبز، فإن وجهة النظر الأصولية حول العلاقات بين اللغات كانت تفسح الطريق لمنهج أقرب في جوهره إلى التصنيف المكاني الحديث.

وعلى الرغم من أن التيار الخاص في النصف الثاني من القرن السابع عشر طغت عليه النزعات العالمية التي انبثقت من فرنسا، ولاقت حماسة كبيرة في إنجلترا، إلا أنه استمر في تطوره

خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر في جوانب متنوعة البحث: في الدراسة المفصلة المتزايدة للصوتيات، وفي المبادىء الرائعة لـــ Wurzelwort أو Stammwort (لكلمة الجذع أو "الجذر") التي طغت على دراسة اللغة في ألمانيا، وفي الدراسة المستمرة للغات الفردية ومجموعات اللغات، مركزاً بشكلٍ خاص على علم التأثيل. ويمكن العثور على تحليل دقيق ومتـــأن جـــداً لقواعـــد اللغات العامية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. واهتم دارسو العاديات والأثريات بشكل متزايدٍ في اكتشاف المراحل المبكرة من لغاتهم وتفحصها. واستفاد العلماء الذين يعملون علـــى لغات جرمانية منفردة من مواد مقارنة بين لغة وأخرى بشكلٍ روتيني. وصل هذا النـــوع مـــن الدراسة ذروته في عمل لامبرت تن كيت Lambert ten Kate الرائع حول الهولندية بعنـــوان: Aenleiding tot de Kennisse van het Verhevene Deel der Nederduische Sparke أي:مقدمة حول الجزء السامي من اللغة الألمانية السفلى، (امستردام 1723). ولكي يعطي قاعدة نظرية متينة لقاموس أصول الكلمات الهولندية الذي شغل معظم المجلد الثاني، فإنه وضع الأسس التي يجب أن توجد حسب وجهة نظره، في Geregelde Afleiding "الاشتقاق المنظم" الـــذي يجب الاعتماد عليه وحده في معرفة الأصول الصحيحة للكلمات في اللغات الجرمانية، عوضـــاً عن Af-en Aen-In-en Uit-en Om-werping Van Letters أي،الإضافة التقليدية، والحذف، وتغير مواقع الحروف وإبدالها. ووعد بأنه لن يسمح بأي تغير لأي "حرف أساسي"، أي: تلك الموجودة في المقاطع المنبورة، بدون قاعدة مقنعة أو دليل معنوي لاجدال حوله لتبريره. وتتألف قواعده من قوائم من التناظرات الفونولوجية في سبع لهجات جرمانيةوهي: الهولندية، والقوطية، والنرويجية القديمة، والفرانكية، والاليمانية، والإنجليزية القديمة، والألمانية العليا.

تكررت نصيحة تن كيت الداعية للتخلي عن الأساليب القديمة في دراســـة أصـــول الكلمات خلال القرن. حيث قام تشارلز Charles رئيس بروسيه، بدوره في عملـــه الـــذائع الصيت Traite de la Formation mechanique des langues,et des principed physiques de l'etymologie (1765) بتكرار بيّنته ومحاولاته للوصول إلى مبادىء تستخدم في علم التأثيل. فعلى المتخصص في علم التأثيل أن يأخذ في عين الاعتبار ماهية المعنى والتهجئـــة الـــتي تعمـــل بوصفها مرشداً مساعداً عندما يكون اللفظ قد خضع لتغير سريع، والصوت أيضاً. ويجب إهمال

النهايات التصريفية، وفي تأسيس الاشتقاقات، " La voyelle ne doit presque etre "comptee pour rien ، في حين يمكن الحكم على الصوامت التي تنطق في المكان نفسه بأنها قابلة للتبادل.

ومع حلول النصف الثاني من القرن الثامن عشر خضعت المصادر الفكرية المتوفرة منذ عصر النهضة لمزيد من الإمتحان في سياقات متنوعة. وتزايد الشعور بقصورها ومحدودياتها بشكلٍ قوي: حيث تعرض علم التأثيل المبني على الشكل المعتمد على المفاهيم الأولية للصوتيات النطقية السائدة منذ عصر النهضة لانتقادات مشابهة لتلك التي تعرض لها علم أصول الكلمات الدلالي عند القدماء. وصل لغويو القرن السابق التاريخيون إلى نتائج مذهلة ولكنهم افتقروا للوسائل التقنية لتبريرها ؛ وبالتالي ،حلت محل اكتشافاتهم افتراضات أقل تبصراً وبصيرة، وعبّر عدة كتاب حريصين ودقيقين عن الشعور بعدم الرضا حول وسائل بحث تلك الفترة وافتراضاتها .

ومرة أخرى يعود الفضل في توفير الباعث المطلوب للتطور الجديد إلى التواصل والاحتكاك بتراث أجنبي. فمن خلال التواصل المتكرر مع المثقفين في الهند، بدأ المبشرون الفرنسيون والإدارات الاستعمارية البريطانية يبدون اهتماماً في كل من اللغة السنسكريتية وفي نظام القواعد المحلي. ورغم الرهبة التي شعروا بها في البداية بسبب درجة التعقيد الكبيرة - لأنه لا يمكن العثور على الجداول المعروفة في أي مكان، وكان على الطالب أن يفهم تماماً سلسلة معقدة متراكمة من القواعد التوليدية - إلا أن موظفي الإدارة البريطانية،ومعظمهم ضليع في التحليل التقليدي للاتينية واليونانية، سرعان ما أدركوا دقة ذلك النظام، وقولبوا قواعدهم الخاصة حول السنسكريتية على شاكلته: وأسس كل من كيري Carey (1804)، وكول بروك Colebrooke، (1805)،و ولكنز Wilkins (1808) وفورستر Forster (1810) أعمالهم بدرجات متفاوتة من الدقة على القواعد الهندية التي تعلموها بأنفسهم(بشكل أساسي صيغ مكيفة أصلية لقواعد بانيني Panini مثل Mughabodha من Vopadeva). وبالنتيجة، وجد علماء الموطن الأصلي هذه القواعد الغربية الأولى للسنسكريتية - عندما استطاعوا الحصول عليها - غير مألوفة في خطتها العامة وغامضةوفشلوا في استخلاص الكثير من الفائدة منها ما عدا بعض الإستثناءات الملحوظة. ولم تصبح السنسكريتيه - التي تغربلت عبر الإنموذج الغربي المألوف

لجداول التصريف مع مجموعة محددة من القواعد التوليدية- في متناول عدد كبير من العلمــاء حتى ظهور الجيل الثاني من القواعد على يد يتس Yates (1820)، وفرانــك (1823) والأكثــر تأثيراً بوب Bopp (1824-37). وهكذا، لم يعرف سوى عدد محدود من مفاهيم أنموذج القواعد السنسكريته طريقه إلى اللغويات الغربية، ولكن كان لتلك التي وصلت أهمية حاسمة. فبــادىء ذي بدء لم يُفهم الكثير من التحليل الهندي الدقيق لأصوات السنــسكريتيه إلا جزئيــاً، إلا أن مفاهيمه الأساسية مثل: مفاهيم المحور الأفقي لأمكنة النطق (معروفة مسبقاً من التراث السامي) والمحور العامودي لأساليب النطق (الجهر، والأنفية، والهائية) - الحيوية للغاية لفهم عملية المماثلة الصهرية التي تمثل سمة هامة في علم الفونيمات الصرفي في السنسكريته- سرعان ما تم استيعابها بعمق وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من العمل القواعدي والصوتي اللاحق. (وفيما بعد، وفي القرن نفسه، استلهم معظم علماء الصوتيات الهامين مثل و.د. وتني W. D.Whitney، و أ.ج. إليس A.J. Ellis وهنري سوييت Henry Sweet وآخرين أفكارهم من دراسة النصوص السنسكريتيه حول الصوتيات، الــ pratisakhyas). وقد شُذب مفهوم الجذر بطريقة جعلت دوره اللاحق في فقه اللغة الهندي – الأوروبي أمراً ممكناً. وبناءً على ذلك فقد عرّفه فرانز بوب على النحــو التالي: "الجذور هي المكونات البدائية للكلمات، لا توجد نفسها في اللغة، ولكنها تُعــرف أو تحدد من الصيغ المشتقة منها التي يحتويها أساس مشترك أو جذع". ومن خلال تأكيد طبيعتــها المجردة وعدم تناظرها مع أي شكل موجود، فإنه يضع اللمسات الأخــيرة لمفهــوم الجــذر في اللغات السامية، الذي لم يفهم إلا جزئياً مسبقاً، وجعل نوع علم التأثيل الذي كان سالماسيس و zend و أتباعه يتلمسون طريقهم نحوه أمراً ممكناً. ويصوغ بوب برنامج العمل المــستقبلي في قواعــــده المقارنــــة: : (Verglechende Grammatik des Sanskrit Zend, Griechischen,Lateinischen, Litthauischen, Gothischen and Deutschen) برلين(1833-١٨٥٤):

"أحاول في هذا الكتاب أن أعطي وصفاً مقارناً، يضم كل شيء على صلة بالموضــوع بمـا في ذلك نظام اللغات المسماة في العنوان، وتفحص قوانينها الفيزيائية والآلية وأصل الصيغ التي تشير إلى علاقات قواعدية. وأنني سأطرح جانباً فقط سر الجذور، والأسباب خلف تسمية المفــاهيم

الأساسية بتلك الأسماء ؛ فلن نتحرى، على سبيل المثال،لماذا يعني الجذر I "يـــذهب" ولـــيس "يقف"، أو لماذا تعني الأصوات STHA/STA "يقف" وليس "يذهب"" .

لقد وصل المنهج العلمي الخاص ذروته. ففي حين لا يمكن تجاهل الجانـــب الـــدلالي بشكلٍ كامل، فإن الانتباه قد تحول الآن بشكلٍ مفتوحٍ وبـــدون أي حاجـــة لأي تبريـــر إلى الشكل (الصيغة).

إن المنهج التاريخي في دراسة اللغة - الحركة المسيطرة في اللغويات في معظم القـــرن التاسع عشر – كان مجرد مثال واحد عن النزعة المعاصرة في النظر إلى العـــالم وفـــق شـــروط تطورية. (وذلك موضوع الفصل الرابع والعشرين القادم في هذه الموسوعة). أدرك علماء فقـــه اللغة، على نحو مسل، أنهم سلموا لفترة طويلة بصحة بعض الأفكار التي يعتبرهـــا كـــل مـــن داروين Darwin ومعارضيه جديدة ومثيرة للجدل. فقد كتـــب المتخـــصص في الهنديـــة - الأوروبية المشهور اوغست شليشر August Schleicher، في بحثـــه: Darwinism tested by the Science of Language الداروانية تحت اختبار علم اللغة (1863)، الذي كتبه رداً علـــى كتاب داروين: Origin of Species (1859)، أصل الأنواع ما يلي:

"ما يؤكد عليه داروين الآن بما يتعلق بتنوع الأجناس مع مرور الزمن ... قـــد تم الاعتـــراف بتطبيقاته عامة على أعضاء النطق (اللغة) منذ زمن بعيد .. إن تتبع تطور أشكال جديدة مـــن أشكال سابقة أمر أسهل بكثير، ويمكن تنفيذه على صعيد أكبر في حقل الكلام (اللغة) أكثر منه على صعيد الكائنات العضوية للنباتات والحيوانات .. ويمكن لصلة القربى بين اللغات المختلفة أن تخدم بالنتيجة .. كتوضيح مجدول لأصل الأجناس، لأن الحقول المعرفية تفتقر على الأقل في الوقت الحاضر، لأية فرص مشابهة من الملاحظة".

طرحت هذه المتوازيات سؤالاً آخر: فلو تصرفت اللغات، وهي موضوع الدراســـة اللغوية، مثل مواضيع الدراسة العلمية، عندئذ، هل اللغويات علم ؟ أو لنصيغ الـــسؤال وفـــق شروط استخدمت في ذلك الوقت، هل كانت اللغويات علماً تاريخياً أم فيزيائيـــاً ؟ ينـــاقش ماكس مولر Max Muller وهو ألماني متخصص في الهندية – الأوروبية أمضى معظم حياته في إنجلترا، منطلقاً من طبيعة النظام المعرفي بالإضافة إلى طبيعة اللغة نفسها، قائلاً أنه:"بما أن علم

اللغة قد مر بمراحل التطور نفسها – التجريبيه، والتصنيفيه والنظرية التي مـــرت بهـــا العلـــوم الفيزيائية مثل علم الفلك وعلم النباتات، فيجب أن تنتمي اللغة إلى العلوم الفيزيائية. (محاضرات حول علم اللغة، المعهد الملكي، لندن، 1863,1861). إلا أن وجهة النظر هذه حول الموضوع لم تكن مقبولة على نطاق واسع؛ حيث كتب العالم الأمريكي و.د.وتني المعروف أيضاً بقواعـــده السنسكرتيه التي ما زالت مرجعاً هاماً، ولاسهاماته في دراسات الصوتيات وفقه اللغة المقارن ما يلي: "يحاول العلم الفيزيائي من جهة، وعلم النفس من الجهة الأخرى، جاهدين السيطرة على العلم اللغوي الذي لا ينتمي في حقيقة الأمر لأي منهما (حياة اللغـــة وتطورهـــا، نيويـــورك، 1875). إن هذه الدعوة لاستقلال اللغويات تردد صداها عبر القرن العشرين (نوقشت المناهج الحديثة في دراسة الصوتيات والفونولوجيا، والمورفولوجيا في الفصول الأول والثاني والثالـــث آنفاً).

٢. ٦ المنهج العالمي منذ عصر النهضة

حلت الإسمانية على الصعيد الفلسفي والإنسانية على الصعيد القواعدي محل اهتمامات المجددين العالمية التي اشغلتها الدراسة الدقيقة للفلسفة الارسطووية وقَوتها. واعتمد النحويون الإنسانيون أمثال غارينو فيرونـــس Guarino Veronese،وانطونيـــو دي نابيرجـــا Antonio de Nebriga وثوماس لنكر Thomas Linacre، وفيليب ملينكوثن Philipp Melanchthon ولوريتزو فـــالا Lorenzo valla (هذا اذا ماااكتفينا بذكر بعض الأسماء)، المنشغلين بالتمكن من أسلوب نثـــري أنيق وواضح، على تراث القرون الوسطى المتأخر مثل grammatica positiva بالإضافة لأعمال مكتشفة حديثاً لكتّاب قدامى مثل كوينتليان Quintilian، وفارو Varro والعديد مـــن نحـــاة اللاتينية المتأخرين. أما الملاحظات التي تحط من قدر النزعة التأملية في ربط أو مزج الديالكتيك بالقواعد فكانت شائعة. وبالمقارنة، ففي حين يصر. ج.س سكاليجرJ.J.C Scaliger، وهو عالم إيطالي عمل في فرنسا، على فصل مجالات القواعد عن الديالكتيك فإنه طبق المبادئ الارسطوية الأربعة (المادي، والشكلي، والفعال، والنهائي) على اللغة في بحثه النقـــدي الـــشامل حـــول معتقدات أو أسس القواعد المعاصرة في عمله: De Causis linguae latinae) 1540) الـــذي تبعه عمل فرانسيـــسكوس ســـانكيتوس (ســـانيجيز) بروسينـــسيس Francisus Sanctius

(Sanchez) Brocensis، منيرفا Minerva (1587) عظيم التأثير والأقل توجها فلسفياً. تعاملت معالجة سانكتيوس لعلم التراكيب/النحو ،كما عند النحوي الانجليزي توماس لينكر Thomas linacre في (De emendata Structura latini sermonis, 1524))مع الاستخدام المجازي، وخاصة الحذف، وذلك موضوع غطاه عدد من النحاة في التراث الأساسي أو الرئيسي؛إلا أن سكاليجر تجاهله تماماً

لم تكن الفلسفة الأرسطووية المنفذ الوحيد المتبقي لمعتنق وجهة النظر العالمية. لقد تم مجابهة الصحوة المتنامية للغات الأوربية المحلية، وتزايد عدد اللغات المكتشفة خارج اوربا عندما بدأ القرن السابع عشر ،باليقين المزعج تماماً بأن الوسائل التقليدية في الدفاع عن بابل، واللغة اللاتينية، التي لم تزل حتى ذلك الحين اللغة العالمية بدون منازع، كانت تفقد فعاليتها بسرعة. وبسبب التحدي الذي واجهته اللاتينية من لغة محلية بعد أخرى على أنها وسيلة الكتابة الأكاديمية، وعديمة النفع تماماً خارج أوربا الغربية، فإنها انخرطت (اللاتينية) في صراع يائس لا نجاة منه. ردّ العلماء والجمهور عامة، وهم يواجهون الاحتمال الذي لا مفر منه من تقسيم لغوي على صعيد غير معروف في أوربا الغربية منذ رحيل الرومان، بالتركيز على الجانب العالمي من اللغة. أين يمكن العثور على دواء لبابل ؟ ففي الطرف الأول من الطيف، هناك جاكوب بوهيم Jakob Bohem بعمله الملهم Natursprache (1635 De Signatura rerum)، اللغة الإلهية الأصلية، "جذر أو أم لغات العالم كافة ومفتاح المعرفة الكاملة والصحيحة لكافة الاشياء". لقد سمىَّ آدم، وهو يدرك أعمال الكلمة الإلهية المبدعة في الطبيعة، كل المخلوقات وفق صفاتها الأساسية الخاصة بها، مستخدماً لغة إنسانية كوسيلته. وقد ضاعت هذه المقدرة على قراءة لغة الطبيعة في بابل. ومنذ ذلك الحين، وقعت اللغة في فخ المادة الخارجية الخام، حيث نجد أن كلماتها اعتباطية وتفتقر لأي اتصال جوهري مع الطبيعة. ولكن مثل رومان لل Roman Lull قبله وردولف شتنر Rudolf Steiner في القرن الحالي، أكد بوهيم أن Signaturae rerum، أي، الدلالات التي تحتويها الظواهر الأرضية الدالة على طبيعتها الصحيحة موجودة هناك ليقرأها أولئك المستعدون لتحمل القيام بالتدريب المطلوب. وفي الطرف الثاني من الطيف كانت هناك المحاولة الرائعة لجون ويلكنز John Wilkins لبناء لغة مصطنعة تعتمد على

تصنيف عقلاني لكافة أنواع الواقع – في جوهرها نظام أرسطووي يدعمه دَخْل عملي/تجـــريبي من فلاسفة الطبيعة مثل عالم الحيوان فرانسيس ويلباي Francis Willoughby وعالم النبـــات جون ري John Ray (الذي انتقد بعنف الأسس الفلسفية غير الواقعية لمشروع ويلكنز). أَمُـــل ويلكنز من مثل هذه اللغة أن تكون وسيلة مباشرة وواضـــحة للتواصـــل ووســـيلة للبحـــث العلمي.إلا أن هذا الدواء الأخير لبابل - لإعادة بناء الحقيقة، إذا جاز التعبير، من خلال فرض فئات اعبتاطية (أو تقليدية) عليها وبعد ذلك اعطاء هذه الفئات تسميات اعبتاطية - مات لحظة ولادته واستقبلته الجمعية الملكية بفتور؛ وهي التي تبنت المشروع في الأصل. وعلى الرغم مـــن ذلك، فـــإن بحـــث ويلكـــنز: Essay Towards a Real Character and a Philosophical Language "مقالة نحو شخصية حقيقية ولغة فلسفية، (1668) قد ذاع صيته على نحو واسع في القارة كما في انجلترا، وزود ب.م. روجيه P.M. Roget – وهو مثل ويلكنز زميل (وفي الواقع رئيس) الجمعية الملكية – بالإلهام للنظام المستخدم في بحثه لمعجم الكلمات والعبارات الإنجليزية ، Thesaurus of English Words and Phrases (١٨٥٢).

لم يسهم ويلكنز ولا بوهيم، رغم أنهما يمثلان تيارين مختلفين من البحث عن العالميات في اللغة، مباشرة فيما أصبح يعرف فيما بعد بالنسخة الأساسية للقواعد العالمية. إنَّ أصل عمل بور رويال Port - Royal نفسه Grammaire generale et raisonnee (1660) يعكس العناصر المتـــضاربة في العمل: التقاء القواعد الخاصة بالفلسفة. لاحظ كلود لانسيلوت Claude Lancelot، أثنـــاء كتابته كتباً منهجية حول اللاتينية، واليونانية، والإسبانية والإيطالية، وجـــود سمـــات/معـــالم مشتركة بين هذه اللغات (واستنتج) وكل اللغات الأخرى ؛ أما زميله الفيلـــسوف المحـــصّن انطونيو ارنولد Antoine Arnauld، فقد قدم إثباتاً استقرائياً للقاعدة العقلية /الإدراكية للغة – جُعلت العمليات العقلية فيه أساس التمييزات القواعدية. هناك ثلاث عمليـــات أساســـية-، تشكل المفهوم مثل "مدوّر"،و القيام بإعطاء حكم مثل "الارض مدورة"، والمحاكمة العقليـــة – قدمت إطار عملٍ لتمييز بين أقسام الكلام المختلفة ودراسة علم التراكيب/النحو. وبما أن هذه العمليات ونتائجها اللغوية عالمية، فإنه يمكن توضيحها في أية لغة، وقدمت الفرنسية واللاتينيـــة معظم الأمثلة. وبهذه الطريقة يُظهرُ التحليل الـــشهير للافتـــراض "Dieu invisible a cree le

"monde visible" كيف أن ثلاثة افتراضات عقلية مميزه – أن الله غير مرئي، وأنه خلق العـــالم، وأن العالم مرئي – كلها موجودة في هذا الافتراض الكلامي. لقد مثلّ التميز بين اللغة العقليـــة واللغة الكلامية التي تكوّنُ مجال عمل النحاة جزءاً من التراث الفلسفي واللاهوتي لعدة قـــرون. و لم تمثل محاولة المرء اشتقاق جمل قابلة للتحليل القواعدي من افتراضات عقلية مشروعاً مـــثيراً للاهتمام عند شخص متمرس في هذا التراث. بل عوضاً عن ذلك،احتل تحليل تبريـــر أجـــزاء الكلام أهمية قصوى أو ملّحة. وبعد أن عُرِّف الفعل على أنه كلمة يهدف استخدامها الأساسي الإشارة إلى التوكيد، كما في "العالم (يكون) مدور(اً)"، فإن النحاة استخلصوا أن هذه الوظيفة تتحقق في أبسط أشكالها في فعل الكينونة "to be"؛ وحُللـــت الأفعـــال الأخـــرى، "live" "يعيش"، على سبيل المثال: بأنها تتألف من فعل الكينونة بالإضافة لنعت لصيق. ويعتـــبر هـــذا التحليل، الموجود أيضاً في أعمال المجددين وأمكنة أخرى، سمة التراث العالمي – وتلك نتيجـــة طبيعية للتحليل المنطقي ، وليس القواعدي للافتراضات.

وكانت Grammaire generale et raisonee السلف المعترف به لسلسلة طويلة مـــن القواعد "العامة"، أو "الفلسفية" أو "العالمية" أو "التأملية" التي كان مؤلفوها مهـــتمين بإظهـــار تغلغل المبادىء المنطقية في اللغة بعيداً عن التأثيرات الاعتباطية/الكيفية لاستخدام أية لغة بعينها. ففي انجلترا، يمثل عمل جيمس هارس James Harris ,"Hermes" أو "تساؤل فلسفي بخصوص القواعد العالمية" (1751)، وهو الأكثر وضوحاً في تطبيقه للفئات الفلسفية على اللغة مـــن أيـــة أعمال أخرى من النوع نفسه. وفي ألمانيا يمثل عمل أ.و.ف بيرنهاردي A.f. Bernhardi (1805 (Anfangsgrunde der Sprachwissenschaft) أمثلة متطرفة لتطور هذا النوع خارج فرنسا.

إلا أن القواعد الفلسفية كما تطورت من قواعد بور رويال لم تكن الحامل الوحيـــد للتراث العالمي في دراسة اللغة بين 1660 و 1880 رغم أنها كانت ذائعة الصيت ومعترفاً بهـــا عامة. ومع لوك Locke، وكونديلاك Condillac و"فلاسفة" التنوير الفرنسيين، بـــدأ الـــسؤال المتعلق بأصل اللغة وطبيعة علاقتها بالفكر يستحوذ الانتباه. ودُرست قواعد اللغـــات الغريبـــة بحرص شديد، لأن لغات الناس البدائيين، كما كان يعتقد الكثيرون، ستلقي الضوء بالـــضرورة على لغة الإنسان في مرحلة بدائية مناظرة من التطور. وانبثقت من هـــذه البـــدايات دراســـة

التصنيفات اللغوية. أما معضلة أصل اللغة نفسها فقد عانت من قدر ممتع للغاية، حيث جذبت الجائزة التي عرضتها أكاديمية برلين عام 1771 لبحث حول هذا الموضوع حوالي واحد وثلاثين بحثاً، ورغم اسهام هيردر Herder الرابح للجائزة بعنوان: (Abhandlung uber den Ursprung der Sprache) إلا أن الموضوع استمر في إثارة نقاش حيوي حتى نهاية القرن وما بعده. وفي عام ١٨٦٦ وجدت جمعية اللغويات الباريسية أنه من الضروري منع الدراسات في هذا الموضوع ، ويُظهر ذلك بوضوح أن الاهتمام العام بهذا الموضوع ما زال مفعماً بالحيوية، في حين يئس التيار الأكاديمي الأساسي من العثور على أي حل.

ولكن تم استقدام عنصر جديد غير متوقع في تلك الأثناء ألا وهو: اللغة السنسكريتية. حيث تحول السؤال حول أصل اللغة لفترة قصيرة إلى الاعتقاد بأن السنسكريتيه هي اللغة الأم، وبعد ذلك نُسي ذلك التصور عندما اتجهت معظم الطاقات نحو دراسة رسمية مفصّلة للسنسكريتيه ومقارنتها مع اللغات الشقيقة. استغل عدد من العلماء المنظور الواسع الذي قدمه اكتشاف السنسكريتيه واللغات الغريبة الأخرى وصاغوا فرضيات بعيدة المنال والتأثير حول طبيعة اللغة ودروها. حيث تصور فيلهليم فون همبولدت Wilhelm von Humboldt، وهو أخ للعالم والكشافة الكسندر وصديق لغوته، اللغة بأنها عضو الوجود الداخلي،ووسيلة للفهم - أو لإبداء الأفكار والمشاعر (Uber die Verschiedenheit des menschlichen Sprachbaues und ihren Einfluss auf die geistige Entwickelung des Menschengeschlechts) (١٨٣٦) . حيث تبدي النفس البشرية نفسها في أشكال مختلفة من الحضارة والثقافة بين شعوب مختلفة، وكذلك أيضاً في لغات مختلفة. تمثل كل واحدة محاولة، بل تقريباً، وإسهاماً للحاجة العالمية لتطوير قدرات البشر الروحية والعقلية وتكشف عن طريقتهم الخاصة للتواصل مع العالم. وبعيداً عن تمثيل الظواهر مباشرة، تقوم كل لغة بنطق إدراك تلك الجماعة اللغوية للعالم حولها من وجهة نظرها المميزة لها. إن اهتمام همبولدت العميق في جوهر الفروقات الفردية بين اللغات غير موجود بشكلٍ كبير في تيار اللغويات النظرية الأساسي في القرن العشرين كما هو في اللغويات الأنثربولوجية (الأصول - الإنسانية) التي بدأها عمل ي. سابير E. Sapir و ب.ل. وورف B.L. Whorf، وفي عمل العلماء الألمان من ليوفيزغيربر Leo Weisgerber وما بعده.

ولكن ما أن نُشر عمل همبولدت العظيم (بعد وفاته) حتى أزاح جانباً نظام المعرفة الجديد لفقه اللغة المقارن الجانب العالمي في دراسة اللغة. وعلى الرغم من أن علماء فقه اللغة من منزلة جاكوب غريم Jakob Grimm، وماكس مولر Max Muller، وهـ. ستينثال H. Steinthal، و و.د. وتني W.D. Whitney قد شغلوا أنفسهم بمسائل مثل أصل اللغة الأول، وعلاقتها بالفكر، وموقعها بين العلوم، إلا أن كتاباتهم حول هذه المواضيع قد حسرتها الحماسة المعاصرة للعمل التاريخي والمقارن. وهكذا، فعلى الرغم من أن الأفكار التي علمّها فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure في محاضراته الشهيرة في جنيف بعنوان: Cours de linguistique generale، "محاضرات في اللغويات العامة"وطبعت بعد وفاته، على أساس الملاحظات التي جمعها فيما بعد طلبته من محاضراته، في عام(1916)، كانت بعيدة كل البعد عن كونها جديدة، وكانت قيد التداول بشكلٍ متقطع نسبياً خلال القرن التاسع عشر، إلا أن وقعها على المجتمع الأكاديمي كان بأنها جديدة، ومثيرة وفوق هذا وذاك غير مألوفة في المناخ الفكري المتبدل بعد الحرب العالمية الأولى. وتمثلت النتيجة بتفسير صارم للغاية للأفكار التي تم تمثيلها بشكلٍ مخططات في المحاضرات الآنفة الذكر والتي كانت شائعة قبل ذلك التاريخ في أشكالٍ أكثر دقة وتنوعاً. ومثل ذلك، على سبيل المثال، كانت فكرة L'arbitraire du Signe، "الطبيعة الاعتباطية للعلاقة بين الرمز اللغوي ومدلوله".حيث رُفعت إلى درجة العقيدة الراسخة في معظم فروع اللغويات، وهي تتعارض مع الإحساس الأولي لناطق اللغة الأصلي (والناقد الأدبي) حول القيمة المؤثرة لبعض الأصوات المحددة والتجمعات الصوتية، وتلك حقيقة أدركها فون همبولدت (وأفلاطون قبله بكثير). والإشارة اللغوية، التي عرفت بأنها اتحاد بين المفهوم (Signifie) وتمثيله السمعي/الصوتي (Signifiant) هي الأخرى إحدى مظاهر مخطط أرسطو، ولكنها تحتاج إلى صقلٍ في المستوى الحسي. اعتبر تميزُ سوسير بين المنهج التزامني والتاريخي (الزماني) في دراسة اللغة وثيقة لتحرير اللغويات البنيوية الوصفية التزامنية عن اللغويات التاريخية رغم حرص سوسير نفسه على العلاقة التكافلية بين المحورين التزامنيين. ربما كان أكثر بصائر سوسير نفعاً وخصوبة هو تقسيمه الشهير Langue - Parole حيث يمثل Langue ذلك الجانب من اللغة الذي يؤلف نظاماً من الإشارات الموجودة في كلام التجمعات الكلامية وهو مستقل

عن رغبة أي فرد بعينه، في حين يشير Parole إلى الألفاظ الخاصـــة لمــتكلمين دون غيرهـــم. Laugue هو الأهم والأساسي، في حين يمثل Parole جانب اللغة العَرَضي.

تكمن أهمية سوسير بشكلٍ أكبر في توضيحه مضامين أو استتباعات المنهج البنيوي في دراسة اللغة أكثر من الأسس المحددة لنظريته أو عقيدته، التي عدل معظمها البنيون الأوربيـــون والامريكيون مثل - بلومفيلد Bloomfield واتباعه، وتربتزكوي Troubetzkoy ولغويين آخرين من مدرسة براغ، هيلمـــسلف Hjelmslev، ومدرســـة كوبنـــهاغن،و مارتنيـــه Martinet وتشومسكي Chomsky والعديد من فروع القواعد التوليدية - الذين يعترفون جميعهم بدرجة أو بأخرى من الدين أو الفضل له. والأهم من ذلك هو نتائج عمله علـــى الأنظمـــة المعرفيـــة الأخرى التي تقع على أطراف اللغويات أو خارجها مثل: علم الرموز، والأنثربولوجيا (علـــم أصول الإنسان)، والتاريخ، وعلم النفس، والفلسفة، والنقد الأدبي. وخضعت البنيوية لتطـــور أخذها خارج سياقها الأساسي على يد علماء فرنسيين خاصة مثل ليفـــي ســـتراوس - Levi Strauss وفوكو Foucault، وبارثيس Barthes وداريدا Derrida. أما ضمن تيـــار اللغويـــات الأساسي فعاد الاهتمام ينصب مؤخراً على علم الدلالة؛ أما نظام المعرفة المتحد بعلم الدلالـــة والمعروف بالبراغماتيه، والذي يعتمد بشكلٍ كبير على المنطق، فقد قفز إلى مقدمة الدراســـات اللغوية. لقد غطى الفصلان الخامس والسادس من هذه الموسوعة تطورات القرن العشرين لهذه المواضيع وغيرها من فروع اللغويات الغربية. ولذلك فبدلاُ من أن نعيد المعلومات نفسها، دعنا ننقل مركز الانتباه من الوصف المتمحور حول التراث الأوربي إلى تراثات لا تقل غنى - ولكنها بالنسبة للقاريء الغربي - صعبة الفهم والمنال.

٣. التراث اللا-غربي/أوربي

لا يمثل التراث اليوناني - الروماني الذي انبثقت عنه اللغويات الغربية المعاصرة سوى واحد من عدة تراثات مستقلة في دراسة اللغة عُرفت بوجودها في الثلاثة الآف سنة الماضية. وهو لا يمثل الأقدم، في أية حال من الأحوال، وليس بالضرورة الأكثر تنوعاً أو دقة في فهمه للغـــة. يمكـــن للشرق الأدنى القريب و الهند والصين أن تتفاخر جميعها بتراثات لغوية أقدم بكثير، في حين أنه عندما تتعلق المسألة بغزارة البصائر وشمولية المجال، فإن كلاً من التراث الهندي والعربي يتنـــافس

على قدم وساق مع التراث الغربي. لقد نمى كل من هذه التراثات مستقلاً عن الآخر، وتطـــور منعزلاً في معظم مراحله، مستمداً قوته وبصائره من مصادر الثقافة التي نما من خلالها. كانـــت هناك حالات قليلة من التواصل والتأثير المتبادل إلا أنها كانت على قدر كبير من الأهمية: فقد لُقِحَ التراث العربي مراراً ببصائر من أعمال أرسطو ؛ أما المبشرون البوذيون فقد أخذوا نظـــام التصنيف الصوتي إلى سلالة تانغ الصينية ؛ اما الغربيون، فقد استقبلوا ولمرتين حـــوافز حيويـــة للغاية من الثقافات الغريبة/الأجنبية، من التراث السامي حوالي عام 1500 ميلادية ومن التراث الهندي حوالي عام ١٨٠٠ ميلادية. ولكن كي نفهم كيف طور كل تراث شكله المميز، فمن الأهمية بمكان أن نحاور وجهة نظر الناس وكيفية اتصالهم بالعالم كما بدت لنا في كافة الجوانب الثقافية ، بدلاً من البحث عن مجرد صيد المصادر فقط. وعلى أية حـــال، ستكتـــسي قطعـــة مستعارة من عقيدة ما أهمية مختلفة عندما تزرع في محيط ثقافة غريبة وإن فعل الاستعارة بذاتـــه هو على درجة كبيرة من الأهمية.

وعلى الرغم من أن كلاً من التراثات اللغوية العربية، والهندية والصينية يستحق نقاشاً بنفسه وعلى قدر مساو للتراث الأوربي، إلا أن ضيق المكان لا يسمح إلا بتلخيص مقتـــضب للغاية. وضمن هذه الأحوال والشروط، بدا أن المنفعة القصوى تتحقق إذا ما نوقشت هـــذه التراثات بالرجوع إلى التراث الغربي، ومقارنة سبل تطورها والقاء نظرة عـــابرة علـــى تلـــك الجوانب من العقيدة التي حصل فيها تواصل. وتقدم الأعمال التي ذكرت في المقترحات لقراءات موسعة وجهة نظر أكثر شمولية لهذه التراثات، إضافة إلى دليل كبير من المراجع.

٣. ١ العالم العربي

ظهرت الكتابة العربية القواعدية، التي تبدو أنها نشأت من لاشيء، ولا يوجد هنـــاك تـــراث كلاسيكي جليل يمتد خلفها، لأول مرة في الشكل المتطور والمفصل الذي أعطاه إياهـــا أكثـــر أعلامها شهرة سيبويه، بعد مائة وخمسين عاماً فقط من وفاة محمد صلى الله عليه وسلم. وتُبع هذا التقعيد الفائق السريع بتوسع غزير وسريع في كافة مجالات دراسة اللغـــة: الـــصوتيات، والصرف، وعلم التراكيب، وعلم الدلالة وفلسفة اللغة. وفي غضون ســـتة قـــرون وصـــلت اللغويات عند العرب إلى مستوى أكثر قرباً من اللغويات الغربية في عصر ما بعد النهضة منه

من عمل القرون الوسطى في الغرب وقتها. ومع ذلك وبحلول عام ١٤٠٠ميلادية، فإن زخمها قد تلاشى، وبدلاً من المشاركة في اتجاه التغير الفكري الذي أحدثته نظرة العالم الجديدة في عصر النهضة الأوربية، استمر الكتاب العرب في كافة فروع المعرفة، العلمية واللغوية على حد سواء في البحث في تراثاتهم القديمة التي توقفت عن إغنائهم بإلهام جديد. وبالمقارنة مع اللغويات الأوربية، فإن اللغويات في العالم العربي وصلت إلى مستوى أكثر تطوراً تقنياً في فترة قصيرة للغاية - ولكنها، مثل زهرة تفتحت قبل أوانها،فقد ذبلت وماتت تماماً عندما بدأت رفيقاتها تتفتح.

من المحتمل أن يبقى السؤال المتعلق بكيفية تطور دراسة القواعد في مراحلها الأولى في العالم العربي سراً غامضاً. أسهم في ذلك عاملان، الأول داخلي والثاني خارجي. حيث احتل القرآن الكريم، والحفاظ على نصه وتأويل مضامينه أهمية قصوى في الثقافة الإسلامية. وبانتشار الإسلام بين إناس لا يتكلمون العربية أصبحت الحاجة ماسة إلى تعاليم رسمية قواعدية ؛ لأن فوق هذا كله لم تُشر الألفائية العربية وقتها إلى الصوائت، و لم تميز، في أقدم أشكالها، بين عدة صوامت أيضاً. فبدون معرفة شاملة للغة ستكون القراءة الشفوية الصحيحة للقرآن الكريم أمراً مستبعداً، وذلك جزء حيوي وهام للغاية من التعاليم الدينية. وكان هذا هو الباعث الذي يعزى لواضع القواعد العربية الشهير أبو الأسود الدؤولي (الذي توفي حوالي عام 688 هجرية). وينحدر العديد من معظم نحاة العربية شهرة، بداية بسيبويه نفسه من أصل غير عربي (غالباً من أصل فارسي) أو من أصل هجين. ولو تعلق الأمر بمجرد نطق النص، فلم يكن نحاة العربية بحاجة لمزيد من التطوير ، تماماً مثلما فعل الماسورينيون الذي ركّزوا على نطق العبرية والصعوبات المتعلقة بقراءة الكتاب المقدس، ولكنهم لم يذهبوا إلى أبعد من ذلك. إلا أن حاجات الداخلين في الإسلام الذين يتكلمون لغات لا علاقة بها بالعربية، وخصوصاً الفارسية، والإمكانيات التي قدمها المحيط الفكري الحيوي في مراكز مثل نصيبين وجنديسابور وبغداد فيما بعد أسهمت في تطور التراث القواعدي العربي بسرعة لا نظير لها. وكانت اليونانية ما تزال تستخدم في أجزاء من الشرق الأدنى في قرون الاسلام الأولى، وقد تُرجم الكثير من المعارف اليونانية، بما في ذلك جزءٌ من القواعد التي تعزى لدانياسس ثراكس Dionysius Thrax، إلى

السريانية، وهي لغة سامية ذات استخدام واسع النطاق في الشرق الأدنى. وعلى الرغم مـن أن مدى التأثير اليوناني على إرساء التراث القواعدي العربي ما زال قيد الجـدل، إلا أن وجـود اتصال بين التراثين ليس موضوع نقاش البته، وأن تفاصيل مثل اختيار فعل إنمـوذجي بمعـنى "يضرب" في كل من التراثين – "ضرب" في العربية و Tupto في اليونانيـة - يؤكـد ذلـك. والمعضلة الأكبر هي السؤال المتعلق بالتبعية على المستوى النظامي. ولا تجد الأهمية التي تتحلـى بها المصطلحات ومفاهيم التشريع الإسلامي في قواعد العربية المبكرة مـا يوازيهـا في معظـم التراثات اللغوية الرئيسية الأخرى.

إن أقدم قواعد وصلتنا من التراث العربي هي الكتاب لسيبويه (الذي مات عام 793). وربما كان الاهتمام القليل الذي يوليه للمواضيع الدلالية أهم سمة فيه بالنسبة للقـاريء الملّـم بالتراث اليوناني - الروماني. وتبدأ المقدمة بذكر أصناف الكلمة الثلاثة: (الأسماء) و (الأفعال) والكلمات "الموجهة نحو معنى" والتي لا تمثل اسماً أو فعلاً أي، (الحروف). فالأسماء لا تحتاج لأي شرح، ولم تعط أي شرح في الكتاب، أما الأفعال فتأخذ أشكالاً متعددة كي تعرف أو تحـدد أفعال الأسماء، وتشير إلى ما تم حدوثه، أو لما سيكون ولكنه لم يحدث بعد، أو لما هو قائم ولكنه لم ينته بعد. ومعظم النقاش الذي يلي المقدمة هو عن الإعراب و"التصريف" بالمفهوم الواسـع، يتمركز حول الشكل لدرجة غير معروفة في الغرب. فبدلاً من تعريف فئات وظيفية، ودلاليـة ومنطقية مثل "فاعل" أو "أسمي" أو الشخص الأول المفرد، وجدولة الأشكال المختلفـة الـتي تتحقق من خلالها، يحدد سيبويه بنى و عمليات شكلية و يوضح كل واحدة منها كما تظهـر نفسها في كلمات من فئات أو أصناف مختلفة. وهكذا، يقع "الاستقرار" (أو النهاية بالفتحة أو التنوين المفتوح) في كل من الاسم والفعل كما في الأمثلة التالية: "رأيت زيداً"، و"لن يفعلَ" ؛ ولكن المد بالكسر (النهاية بالكسرة أو التنوين المكسور) يقع في الأسماء فقط كما في "مـررت بزيدٍ"، في حين يقع السكون (الجزم) في الفعل فقط كما في "لم يفعلْ". فلو أراد نحوي روماني أن يعمل بالطريقة نفسها، فعليه ألا يناقش أجزاء الكلام بالترتيب، ولكن عليه أن يعالج كـل الأشكال التي تنتهي بالحرف نفسه مجتمعة ؛عندها ستضم تلك التي تنتهي بـ ā، على سـبيل المثال، أفعالاً في المفرد الأمر، والأسماء، والضمائر، والصفات، وأسماء الفاعلين في حالة الرفـع

وحالة المفعول عنه/فيه المفرد، والظروف وحروف الجر. وعلى الرغم من أن سيبويه يتعامل مع مفاهيم مسلم بها لحد كبير مثل العدد، والشخص، والجنس، إلا أن التوكيد هو على الشكل.

ونتيجة طبيعية للغويات تعتمد على الشكل هي معالجة العلائق التركيبية/النحوية وفق شروط تغير في شكل متأثر بعامل، ظاهر أو مستتر. وهكذا، تحتوي جملة "يقومُ زيـــدٌ" علـــى عنصرين مستقلين، لا يستلزم أي منهما علاقة تبعية، في حين نجد "زيدا" في عبارة "إن زيداً لن يقومَ" قد أصبحت تابعة بسبب "إن"، وكذلك "يقومَ" أصبحت تابعة بسسبب "لـــن". إن الموازاة بين قواعد التبعية الحديثة وقواعد سيبويه كبيرة للغاية وأكبر مما يقترحـــه هـــذا المثـــال البسيط.

و جانب آخر يوضح مدى انشغال العرب بالشكل اللغوي هو الاهتمام العميـــق في الصوتيات النطقية الذي يظهر منذ البداية الأولى للتراث العربي. يقدم كل من سيبويه والخليـــل (الذي توفي عام 791) جامع قاموس ضخم، تصنيفاً للأصوات الصامتة في العربية معتمداً علـــى مخارج الأصوات، وذلك مفهوم أوسع من مفهومي اللغة السنـــسكريتية Sthana و Karana، تتعلق بتحديد نقطة النطق في المجرى الصوتي التي ينقطع التيار الصوتي عندها أو يُعاق. قُلـــصت قائمة سيبويه التي تضم ستة عشر مخرجاً بالتدريج إلى خمسة، ودخلت العبرية ومـــن هنـــاك إلى التراث الغربي. أما إدراك الغنه فيعود الفضل فيه إلى سيبويه نفسه، الذي قدم اختباراً حاز على تقدير الزمن: "فلو أغلقت أنفك، فإن أصوات الغنه لن تصدر". أما ابن ســـينا، المعـــروف في الغرب بـــ Avicenna (980-1037) فقد ضم بين كتاباته الواسعة رسالة حول الحروف ٠الـــتي تعمل عمل Littera في اللاتينية) احتوت على وصف مفصل لتشريح الحنجرة ووظيفتـــها. إن التراث الإسلامي الحي حول البحث في الصوتيات ، والذي مثله عدد كبير من الكتاب منـــذ سيبويه وما بعده، قد وازاه اهتمام لا يقل نشاطاً بين النحاة العبريين.

إن اهتمام العرب بالشكل والظواهر الفيزيائية يمثل سمة متجذرة بعمق في ثقافتـــهم، ومظاهره ليست واضحة في اللغويات فحسب ولكن عبر حياقم الفكرية. إن الباعث لدراســـة اللغة من وجهات نظر أخرى قَدِمَ من خارج الإسلام. ففي النصف الثاني من القـــرن الثـــامن وخلال القرن التاسع، تُرجم العديد من النصوص اليونانية إلى العربية (عبر السريانية في بعـــض

الأحيان)، بما في ذلك أعمال أرسطو. وتحت تأثيرها ،خاصة بين نحويين ينتمـون إلى مجموعـة المعتزلة، تجذر منهج أكثر فلسفية نحو دراسة القواعد توضحه جيداً أعمال الفارابي (الذي مات عام ٩509) والزجاجي (الذي توفي عام 949 أو 951).حيث قورن المنطق بالقواعد، وحدد مجال كل منهما، وأولى الاهتمام بقضايا هامة مثل الطريقة الصحيحة في صـياغة التعريف،وحـدث ذلك في الوقت نفسه الذي بدأ فيه استيعاب المنطق الارسطووي يسبب إعادة تقييم أولية لدور القواعد في الغرب. وبناءً على ما تقدم، نجد أن اللفظ يعّرف في القواعد اللاحقة كقواعد ابـن عجروم (الجرمية المشهورة) بأنه يحتوي على شكل، ومركب إخبـاري وتقليـدي. نجـد أن العناصر الارسطووية واضحة تماماً. (وتتمثل موازاة أخرى مع تطور القواعـد في الغـرب في القرون الوسطى المتأخرة في شيوع صياغة القواعد نظماً كما في ألفيه ابن مالك).

إن الأهمية المناطة بالمظاهر الرسمية للغة هي نتيجة طبيعية للمحاكمة العقلية القائلة: بما أن اللغة تعكس العالم، فإنها يجب أن تُحكم بالقوانين نفسها. وبما أنه يمكن وصف كافة الظواهر التي تدركها الحواس وفق شروط كمية، فكذلك يمكن أن يكـون عليـه الحـال بالنـسبة للغة.وهكذا بحث القواعديون عن الإنتظام في اللغة، خاصة عبر وسيلة القياس، في حـين تتبـع الفلاسفة الطبيعيون، أشهرهم جابر ابن حيان المتأثر بفيثاغورث، الأجزاء الموجودة في الظواهر الطبيعية في اللغة. ففي حين ركزت اللغويات الغربية في عصر ما قبل النهضة على تلك الجوانب اللغوية التي ساهمت في توضيح الأبدي والروحي، فإن العلماء المسلمين أولوا جانبها الأرضـي قدراً مساوياً من الاهتمام. ومع ذلك، ففي الوقت الذي أصبح فيه العلماء الغربيون قادرين على فهم المنهج العربي وتقديره، فإنه فقد دوافعه وزخمه. إن اليقظة المتمثلة بالاهتمام بالشكل الـتي عرفها عصر النهضة الأوربية لم يكن لديها أي جديد لتعرضه للعرب. إن اللغويين العرب قـد خاضوا غمار الممرات نفسها منذ قرون خلت ؛ وبما أنهم أدركوا أهمية الشكل منذ البداية الأولى لتراثهم، فقد استنفذوا كافة احتمالاته وإمكانياته . إن النهضة لم تزودهم بأية وسائل جديـدة ليستخدموها؛ كانوا المعيرين لا المستعرين، وأسهموا بعدة مفاهيم أساسية من مخزونهم الغـني ساعدت على تأسيس أنظمة المعرفة الغربية للصوتيات والصرف (المورفولوجيا). لقـد كـان

لديهم الكثير ليعطوه، ولكن اختار العلماء الغربيون أن يشقوا طريقهم بأنفسهم، محققين البصائر نفسها في وقتهم، ومستخدمين طرقهم الخاصة بهم.

٣. ٢ الهند

نشأت دراسة اللغة في الهند من حاجة الشعائر الدينية، وبقيت متصلة بها بشكلٍ وثيق في معظم تاريخها. فعلى أعمق المستويات تعترف التراتيل الفيداوية بطبيعة الكلام الغامضة وقدرته. وبناءً على ذلك "قُسم الكلام إلى أربعة أجزاء معروفة للقساوسة الملهمين. ثلاثة منها بقيت سراً غامضاً، لايطلب من الإنسان العادي فعلها ؛ أما القسم الرابع من الكلام فهو الذي يتكلمونه" (ريكفيدا Rgveeda I 45.164). ومع ذلك، وعلى الرغم من انبهار الهنود بطبيعة الكلام الروحية، فإنهم شُغلوا بجانبه الفيزيائي قبل الغربيين بكثير. وأتى الدافع المباشر من الحاجات العملية للشعائر الدينية.حيث أعطيت التراتيل والصلوات الفيداوية المستخدمة في الشعائر البراهمية شكلاً محدداً حوالي بداية الألف الأولى قبل الميلاد. وحيث كان الأب يورث النص إلى ابنه، بدأ النص يبدو قديماً في البداية، وبعد ذلك قديماً للغاية أو مهجوراً عندما بدأت اللغة السنسكريتيه تتعرض للتغير تدريجياً. وبدلاً من أن يطور البراهميون النص، فقد شعروا أنه من الواجب عليهم المحافظة على الشكل التقليدي دقيقاً ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ولمجابهة النطق غير – الدقيق في لفظ الجيل الشاب – وتلك استجابة عادية يقوم بها العالم لمواجهة تأثيرات تغير اللغة – فإنهم أسسوا تدريباً رسمياً، ودعَموه بقوائم من معالم المماثلة الشرعية (الصهر Sandhi) موجودة في كل مجموعة من التراتيل الفيداوية ، ويبدأها أو ينهيها ملخص عن المفاهيم النظرية الكامنة وراء التعليم العملي. ورغم قصرها، عادةً تقع في ثلاث صفحات أو اربع فقط ، فإن الأفكار الأساسية التي تحتويها هذه النصوص (تسمى Prátisákhyas) ترقى لأن تكون مقدمة لأسس الصوتيات النطقية. إنها تعتمد على الألفبائية السنسكريتية، وتمثل في حد ذاتها قطعة لا مثيل لها من التحليل الفوينمي والانتظام النطقي:

a á ii u ú r r l
e ai o au
k kh g gh n

c ch j jh ñ
t th d dh n
t th d dh n
p ph b bh m
y r l v
s s s h

يُسهّل هذا الترتيب تمييز أربع فئات أساسية وهي: الصوائت (قسمت إلى صوائت أحادية وأخرى ثنائية)،والإنفجارات + الأنفيات (المجموعات الخمس التي تتألف كل منها من خمس)، والمتزلقات/الانزلاقيات والاحتكاكيات. لقد وصفت هذه الفئات وقسمت إلى مجموعات فرعية بمساعدة مفاهيم فرعية متنوعة مثل: عضو النطق (Karana)، ومكان النطق (Sthána)، والجهر، والهائية، والأنفية ودرجة الإغلاق. إن الطبيعة المنتظمة للتحليل الصوتي الهندي - التي وصل اليها الهنود في النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد - زودت العلماء الغربيين حوالي عام 1800 ميلادية بالمفتاح لمعالجة معالم كالجهر والهائية في قالب تصنيف منتظم.

إن الاهتمام بالجانب الفيزيائي للكلام نفسه ظاهر في أقدم وأفضل قواعد للسنسكرتية وصلت إلينا وهي "الكتب الثمانية"، Astádhyáyí لبانيني Pànini، والتي كتبت في القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد. وتختلف Astàdhyàyi جوهرياً عن القواعد المركبة - هرمياً عند قدماء الرومان و الإغريق، وحتى عن قواعد فارو الأسلس والأكثر وضوحاً. فبدلاً من أن يسمح للتركيب المفهوم في اللغة أن يقرر أو يمليَّ الشكل العام للعمل، كما يفعل دوناتس ، على سبيل المثال، في البدء بالوحدات الأصغر للكلام وبعدها يبني الأكبر، فإن بانيني ينيط أهمية لا حدود لها لعرض المبادىء أي، شكلها الخارجي. يطغى الاقتصاد على العرض: فهو لا يستخدم فقط عدداً ضخماً من المختصرات التقنية ولغة تقعيدية (واصفة) على شكل برقيات (يجب على الطالب إتقانها في بداية تعليمه)، ولكنه يوظف أيضاً إجراء يشير للتكرار ويمكّنه من تجنب تكرار قاعدة تنطبق أو تسري على عدد من الأنماط المختلفة للظواهر اللغوية - على حساب تجميع قواعد مجتمعة لا تمتلك شيئاً مشتركاً سوى أنها تتأثر بهذه القاعدة الأكثر قوة . وأُعطيت كل قاعدة قدراً متساوياً من الأهمية حتى نصل إلى تلك التي تحكم كلمة بمفردها ؛ أما مفهوم "الاستثناء" الذي يعتبر جزءاً لا يتجزأ من التراث الغربي فلا وجود له عند بانيني. وبالتالي فمن الصعوبة بمكان صياغة أي انطباع حول تركيب السنسكريتية من Astàdhyàyi بدون دراسة

مطولة أو مستفيضة. وعادة يمضي الطالب الفتى ثمانية أعوام يحفظ هذه القواعد عن ظهر قلب قبل أن يُرشد/يُدَرسَ إلى كيفية تطبيق مبادئها، لأنه لكي يولد أبسط أشكال الفعل، عليه تطبيق قواعد من كافة أجزاء العمل. ولذلك، فليس من المدهش أن يلقى كل من التعليقين، مثل عمل باتانجلي Patanjali الضخم والمفصل Mahàbhàsya الذي كتب حوالي عام 150 قبل الميلاد، والنسخ المبسطه والمعاده الترتيب من Astàdhyàyi، مثل: Kàtantra لسارفافارمن Sarvavarman (٤٠٠ قبل الميلاد)و Siddhanta Kaumudi لبهاتوجي ديجاستا Bhattoji Diksita (بداية القرن السابع عشر) قبولاً حسناً لدى عدد وفير من القراء.

يكمن وراء عمل بانيني وأعمال كافة النحويين في الهند في الواقع مفهوم "الجذر" بوصفه كينونة مجردة لا تُظهر نفسها مطلقاً - أو نادراً - في الكلام العادي، ولكنها تعطي المادة الخام التي تصبح، بعد عملية تغيرات فونولوجية متنوعة، قاعدة يمكن إضافة الزوائد اليها، وتنتهي في نهاية المطاف بالكلمة المحكية . وتمثل قوائم الجذور التي جُمعت من بانيني وما بعده جزءاً هاماً من التراث اللغوي. ولذلك، فإن معالجة بانيني للصرف مختلفة تماماً عما كان سائداً في الغرب القديم. فهو لم يستخدم جداول ؛ بل عوضاً عن ذلك، يعتمد على سلاسل مركبة/معقدة من القواعد التوليدية. ولنأخذ مثالاً مبسطاً إلى درجة كبيرة ؛ فلكي نصوغ المفرد الثالث الغائب في الزمن الحاضر من الفعل gam √، "يذهب"، علينا أن نتبع إجراءً ينطوي على إضافة علامة تقليدية تدل على صيغة الزمن الحاضر: lat. وشرط مسبق لإضافة lat للأفعال هو إدخال زائدة بين الجذر واللاحقة. وفي حالة فئة الجذور التي ينتمي إليها الفعل gam √، فإن هذه الزائدة المتوسطة هي -a-. وإذا ما استبدلنا علامة الزمن الحاضر بـ ti وهي النهاية الدالة على المفرد الثالث الغائب ، فإننا نحصل على gamati√ *، و لا تمثل تلك كلمة سنسكريتيه بعد.وما تزال هناك قاعدة أخرى، تصف تغير الجذور من نمط gam/ عندما تُتبع بالاحقة lat، يجب تطبيقها، ونحصل بالتالي على صيغة الكلمة السنسكريتيه الحقيقية، gacchati . وذلك أسلوب ليس مضجراً كما يبدو للوهلة الأولى ،وإذا ما فهم أو أتقن، فإنه ينطوي على وصف أنيق ودقيق لمعظم صرف السنسكريتية الغني. إلا أنه أقل ملاءمة للمبتدئين الأجانب على أية حال(ومن الجدير ملاحظته أن نحاة السنسكيرتيه الغربيين الذين حصلوا على ميزة تلقي المعلومات من

نحوي هندوسي تمسكوا بنظام بانيني الأساسي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، في حين نجـد أن النحاة الغربين في أوروبا –مثل فرانك (1823) بشكلٍ ملحوظ وبـوب Bopp الهائـل التـأثير (1824-1837) – قد تخلوا عن معظم الألية الهندية في الوصف مفضلين تطويع الإطار التقليـدي للقواعد اليونانية واللاتينية لاحتواء السنسكريتيه).

كان اهتمام بانيني الدقيق بالتركيب الرسمي (الشكلي) للغة يرافقـه إدراك وحـرص دقيقان للمجالات المنفصلة لكل من الشكل والمعنى. وإحدى معالم اللغات الهند - أوربية الـتي حيرت علاقتها النحاة مراراً وتكراراً تتعلق بطبيعة الحالة الإعرابية، أي: إلى أي مـدى يمكـن للتغيرات الحاصلة في شكل الاسم وهو يقوم بوظائف قواعدية مختلفة في الجملة أن تقترن بفئات دلالية أو واقعية ؟ ففي التحليل الغربي التقليدي لجملة قبـل الـصهرية مثـل: Devadattah odanam pacati " ديفادتا تطبخ الرز"، توصف "ديفادتا" على أنها فاعل الفعل المعلوم "يطبخ"، pacati، ولذلك فهي مرفوعة، أو فاعل، وتنتهي بالنهاية الصرفية الدالة على الفاعل ؛ ولكنه في الجملة المناظرة المبنية للمجهول: odanah Devadattena pacyate،" يُطـبخ الـرز بواسـطة ديفادتا"، فإن "الرز" odanah في حالة الرفع رغم أن علاقته مع فعل الطبخ لم تتغير. يلتف بانيني على هذه الصعوبة من خلال تأسيس سلسلة من الفئات تسمى Karakas، الـتي تعتمـد في نهاية المطاف على العلاقات التركيبية/النحوية من خلال الحالات الصرفية؛ إلا أنها مفاهيم دلالية ويمكن إظهار ذلك بطرق مختلفة: من خلال فعل (معلـوم، مجهـول، وفي الـزمن والـصيغة الصحيحين)، وحرف جرٍ، أو بتشكيل كلمة بالإضافة إلى النهايات الصرفية للحالة الإعرابيـة. ففي مثالنا الأول، يعبر عن الفاعل Karaka من خلال صيغة فعل معلوم، pacati ؛ ولـذلك لا يحتاج لأن يعبر عن الفاعلية باسم الفاعل الحقيقي (لأن Karaka التي عبر عنها الفعل يجـب ألا تعطى تعبيراً مزدوجاً)، ولكن عوضاً عن ذلك فإنها تأخذ الصيغة غير – الموسومة أو النظامية ، حالة الرفع. أما في الجملة الثانية، فإنه المفعول به Karaka هو الذي يعبر عنه الفعـل pacyate، "قيد الطبخ"، ولذلك تُرك الاسم "الرز" odanah غير موسوم بحالة إعرابية (أي: الرفع) ؛ ومن الناحية الأخرى، يجب أن يعبر عن الفاعل الحقيقي Karaka بوضوح، وفي هذه المرة عبر صيغة الحالة الوسيلية Devadattena.وعلى الرغم من أن نظرية Karaka متطورة بشكلٍ أكبر وأوسع

إلا أنها تشترك في الكثير من جوانبها مع عقيدة القرون الوسطى الغربيـــة الموجـــودة في modi Significandi: فكلاهما يحاول تفسير كيفية امكانية التعبير عن المحتوى الدلالي نفسه في تراكيب قواعدية ومعجمية مختلفة ضمن لغة ما .ويمكن إجراء مقارنات مماثلة مع "الحـــالات الأعرابيـــة العميقة" لفيلمور Fillmore و"النحو التبعي" عند تيسنير Tesniere (راجع الفـــصل الثالـــث، القسم 5 أنفاً).

وكما هو الحال في التراث الغربي، فإن الفلاسفة وليس النحاة هم الذين عالجوا مسألة معنى الجملة بشكلٍ كبير على الرغم من اجتماع الصفتين في شخص واحد في بعض الحـــالات كما في حالة باتنسجال Patanjali وبارتراهري Bhortrari. ومرة أخرى، هيـــأت الكتابـــات المقدسة الهندوسية (الفيدا)محور الدرس، وبما أن كلماتها نفسها اعتبرت أبدية وغير مبتدعة، فإن طبيعتها ومكانتها احتاجت لبحث دقيق. وفتشت مدرسة ميمماسا Mamamsa(من القـــرنين الثالث والثاني قبل الميلاد) عن قاعدة فلسفية للكتابات المقدسة (فيدا) والتي لعبت اللغويات فيها دوراً كبيراً. قدم أعضاؤها وجهتي نظر متعارضين حول معنى الجملة، اعتبركل منهما الكلمـــة بأنها وحدة الكلام الأساسية. وترى وجهة النظر الأولى أن معنى الجملـــة خطـــيٌّ وتراكمـــي، ويعتمد على الكلمة، ويكوّن وحدة مستقلة من الفكر والإحساس. وبالتالي فإن معنى الجملة هو ببساطة مجرد مجموع معاني كلماتها. أما وفق الثانية، فقد عُرِّف معنى الكلمة من خلال معـــنى الجملة. فعندما يدرك السامع تماماً كيف أن "بقرة" و "حصان" تقفان في علاقة جدولية في جملة مثل "أحضر البقرة" و "أحضر الحصان"، يمكنه عندئذ أن ينيط أي معنى بالكلمـــات المنعزلـــة "بقرة" و "حصاناً". لقد طغى عمل بهارتراهاري (حوالي Bhartrhari 450-510) الأكثر شمولية وتفصيلاً على وجهتي النظر هاتين في وقتها. لقد حاول في عمله Vakyapadiya أن يقنع زملاءه القواعديين بالعدول عن انشغالهم الراضين عنه المتعلق بتقنيات منهجية من خـــلال تـــذكيرهم بدور اللغة الأساسي ودور القواعد أيضاً عندما يقول: "فتماماً كما تعتمد كل عالميات الأشياء على شكل كلماتها في تواصلها، فكذلك فإن هذا العلم هو أساس كافة العلوم الأخرى" (I 15) .فلا معرفة ممكنة بدون ترتيب تتابعي لخصائص اللغة، المتصلة اتصالاً دقيقاً بالذاكرة. وحـــتى الطفل لديه أثار متبقية من معرفة الكلمة من وجودها السابق، التي وفق أسسها يمكن لكل مـــن

الادراك واستخدام أعضاء النطق أن ينشأ - ولا يمثل أي منهما مقدرات يمكن تعليمها. ولكن ماهي طبيعة الكلمات التي يلفظها الإنسان ؟ "فمثلما يمتلك الضوء قدرتين، قدرة الكاشـــف، وقدرة المكشوف، فكذلك تمتلك كافة الكلمات قدرتين متميزتين" (I 55). وتحـــصل علاقـــة خاصة بين أصوات بعينها وما يكشف عنه من خلالها أي ، الـــ Sphota. ويمر جوهر الكلام، مصدر عالم الواقعية، في مراحل ثلاث حتى يظهر في الكلام الانساني: مرحلة الواقعية الـــتي لا يمكن تجزئتها أو مرحلة الوعي بدون امتداد مكتمل على محور الزمن، حيث تأخذ الفكرة فيها شكل وميض وينتهي ؛ والمرحلة المتوسطة التي تُعرض الفكرة فيها بشكلٍ تعاقبي، وتصبح فكراً خطياً منظماً منطقياً قادراً على أن يُلفظ (ولديه مسبقاً بعض المعالم المميـــزة للغـــة بعينـــها) ؛ ومرحلة إصدار الكلمات المسموعة الموسومة بمعالم خاصة بكل متكلم دون غـــيره. إن معـــنى الجملة الشامل لم يعد بالإمكان وصفه وفق شروط أجزاءه، تماماً كما لا يمكن شرح معنى صورة من خلال ذكر الألوان المستخدمة فيها. " فمثلما لا يمكن فهم معنى الكلمة من كل صوت من أصواتها، فكذلك، فإن معنى الجملة لا يمكن فهمه من كل كلمةً "(II 60). والمعنى نفسه غـــير قابل للتجزئة: إنه يندفع من اللفظ المنطوق في ومضة حدسية. ومـــا الكلمـــات، والجـــذور، واللواحق، وأصوات الكلام المنفردة سوى وسائل ملائمة تحليلياً، إنها من خيال عالم النحو. لقد أوجد بهرترهاري قاعدة نظرية قوية للغاية لدراسة المعنى عندما اعتبر معنى اللفظ وحدة أساسية موحدة وليست معتمدة على الكلمات المنفردة – وهذه نظرية قادرة على التعامل مع الألفـــاظ غير – القواعدية، ومع محاولات الأجانب الغريبة ولكن المفهومة للتواصل ، ومع اللغة المجازية، وفي الواقع، مع القدرة الخلاقة للغة. أما أتباع بهارترهاري فقد ركزوا على اللغة المجازية، وطبقوا تعاليمه وتعاليمهم على دراسة الشعر السنسكريتي. وفي القرن التاسع عشر، طور عنانـــدافاردانا Anandava rdhana منهجاً أكثر شموليـــة لدراســـة القـــدرة الخلاقـــة في اللغـــة في عملـــه Dhvanyaloka، دارساً عوامل مثل التنغيم، والتوكيد، والإيماءه، ونغمة الـــصوت، والعناصـــر الاجتماعية - الثقافية الخاصة بكلام جماعة لغوية دون غيرها. يخضع علم الدلالـــة التقليـــدي الهندي الآن لبحث حيوي دقيق وتطوير يقوم به علماء هنود ضليعون بعلم الدلالـــة الهنـــدي والغربي على حد سواء.

٣. ٣ الصين

كانت وجهة نظر الصين القديمة حول العالم مشابهة بشكلٍ كبير للغرب ما قبـــل الحـــديث في إحدى جوانبها، وكانت لا تشبهه في جانب أخر بشكلٍ غير متوقع، وفي كلتا الحالتين، انعكس ذلك في نظرتهم للغة. ربما كانت السمة الأكثر وضوحاً والتي تميز النظـــرة الـــصينية هـــي اعتقادهم الراسخ بالنظام. فكان العالم نظاماً مرتباً، وكل شيء فيه يحتل مكانـــه - الـــسماء، والآلهة، والكواكب، والإنسان، والأنظمة الأدنى. وللحفاظ على هذا النظام المرتـــب هرميـــاً وبدقة، لجأ المجتمع الصيني إلى نظام كونفيشوس الأخلاقي. وتسرب هذا النظـــام إلى المجتمـــع برمته: فلا شيء بدون موضعه اللائق به، فلكل شيء معناه وهدفه الخاص به. وكان لزاماً على البشر أن يكتشفوا معنى الظواهر المحيطة بهم. وتتمثل السمة الهامة الثانية للنظرة الصينية، وهـــي واضحة كل الوضوح في الطب كما في اللغويات، في رغبتهم العمل على مستويين: مبـــادىء رئيسية عالمية تنطبق على كل مجال من مجالات الوجود، وأخرى تختص بظواهر خاصة معينـــة. أما المستويات المتوسطة وهي تعميمات ذات صلة بفئة خاصة من الظواهر، على سبيل المثال - فلم يتم بحثها. وبالطبع، كان لوجهات النظر هذه نتائجها في اختيار حقول الدراسة وفي طريقة بحثها. فلو كان هدف الدراسة اكتشاف معنى الظاهرة، عندئذ، فليس من المناسب أن نبقى في مستوى الظواهر نفسها، ويجب التفتيش عن تفسيرات لها في المستوى الأعلى (إلا إذا كان على الباحث أن يعود إلى التقليص). وبناء على ذلك، نجد، في الـــصين كمـــا في غـــرب القـــرون الوسطى، أن علم الفلك قد امتزج في علم التنجيم، واختلط علم الأحياء بالملاحظات الأخلاقية والغائية في مؤلفات القرون الوسطى الرمزية عن الحيوانات. لاحظ العلماء الصينيون العمليات في المستوى المادي فقط ولكنهم بحثوا عن شروحات لها في مستوى آخر.

ولهذا الموقف، بالطبع، استتباعات في دراسة اللغة. فلم تكن هناك فكرة لدراسة اللغة "في ذاتها ولذاتها" ؛ لقد دُرست تلك الجوانب التي كانت منسجمة فقط مع وجهة النظر الصينية الشاملة حول العالم. ولذلك لا يوجد هناك وصف شامل لقواعد الصينية، على سبيل المثال. بل عوضاً عن ذلك، اُستخدمت اللغة لتقوية القواعد الأخلاقية للمجتمع الصيني. فعلى سبيل المثال، عندما سئل كونفيشوس عن الطبيعة الصحيحة للحكومة، أجاب أن جوهر الحكومـــة (zheng)

يجب أن يكون مستقيماً (zheng): يدعم الربط الدلالي ترتيب الأشياء الطبيعي كما في ربط القرون الوسطى reges بـ recte agendo. تلعب مناقشات من هذا القبيل دوراً بارزاً في الفلسفة الصينية المبكرة وقيمتها الأخلاقية، وبشكل ملحوظ في أعمال كونفيشوس Confucius ومينسس Mencius. وبشكل أساسي، فإن السؤال الذي طُرِحَ هو: "ما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه اللغة في كشف أسرار العالم "؟ وكان الجانب الدلالي من اللغة هو ذلك الجزء المحتمل جداً القيام بذلك.

ونتيجة لذلك، كانت الكلمة هي مركز اهتمام اللغويات الصينية –حيث اعتبرت الكلمة حاملة المعنى أو مجسدته . فلا يمكن للمستويات الأدنى من الكلمة - الصرف والصوتيات - أن تساهم بأي شيء (في حين كانت الفونولوجيا حالة خاصة كما سنناقش لاحقاً)، في حين قام نقاد الأدب بدراسة المعنى في المستوى الأعلى من الكلمة. و لم يُدرس علم التراكيب/النحو. وبما أن الكلمة بوصفها كينونة دلالية كانت محور الانتباه، عندئذ، مالت الدراسة اللغوية إلى التركيز على قوائم الكلمات أي: المفردات المعجمية، ومسارد للكلمات وشروحها، ومعاجم المرادفات والقواميس .وكانت صناعة المعاجم ودراسة اللهجات المهتمة بتحليل الألفاظ أساساً، هي أهم فروع اللغويات تطوراً في الصين ما قبل - الحديثة.

إن أقدم قاموس يعزى لأحد اتباع كونفيشوس،وهو زي زيا بعنوان: إير يا Er Ya(كنز الكلمات الجميلة/الرقيقة)، ويعود إلى ما بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد). قُسم إلى تسعة عشر قسماً، معظمها فئات دلالية حيث نجد: الأسماء والمصطلحات، والكلمات الصعبة، والعلاقات الأسرية، والمهن، والأدوات، والموسيقا، والسماء (كلٌّ من المناخ والتقويم على حد سواء)، والأرض، والهضاب، والجبال، والماء والنبات، والأشجار، والحشرات، والزواحف، والسمك، والطيور، والحيوانات المتوحشة، والحيوانات الأليفة. وأيّ تصنيف دلالي لا بدّ وأن يعاني من قصور محدد. فالعديد من الكلمات لا تقبل تصنيفها في فئات وفق هذه الأسس، وتلك معضلة يعترف بها Er ya ولذلك نجده يحتفظ بعدة أقسام للمصطلحات المتنوعة والكلمات المستخدمة مجازياً. ربما كان الأهم من هذا وذاك وأقرب إلى الهدف تلك الصعوبات التي يواجهها قارىء غير ملمّ بنص يريد أن يبحث عن معنى كلمة (حرف) غريبة ؟ فإذا ما قيل له

أن يبحث عن ذلك في عمل مصنف دلالياً فذلك سيضعه في محنة مشابهة إلى تلك التي يلاقيها طفل غربي يسأل عن تهجئة كلمة فيُنصح بالبحث عن ذلـــك في قـــاموس مرتـــب ألفبائيـــاً. وكمخرج من هذه المعضلة اقترح أشهر قواميس الصينية قاطبة، Shuo Wen Jie zi لمؤلفـــه (شرح الحروف (الكلمات) البسيطة والمشتقة)، (حوالي ١٥٥ ميلادية) ممراً نحو حلٍ. وكمـــا يوحي اسمه، فإن محور التصنيف قد تحول من المعاني إلى الحروف، وقسمت الحروف إلى فئة أو أخرى من ست فئات وفق تركيبها – رموز مطابقة، ورمزية،وصوتية ومستعارة صوتياً، ومركبة دلالياً، ومحّورة – و قد عُزِّل العامل الدلالي المشترك، أو الجذر، واســـتخدم بوصـــفه قاعـــدة للتصنيف. إن القائمة الأساسية الأولى احتوت على ٥٤٠ جذراً (حرفاً أصلياً)، قلصت فيمـــا بعد إلى ٣٦٠، وأخيراً إلى قائمة من ٢١٤ لم تزل قيد الإستخدام حتى يومنا هـــذا. و لم تـــزل المعاجم التي تعتمد على الجذور بوصفها مبدأً للترتيب تشترك مع معاجم المرادفات بالعديد من السمات، حيث تندرج كل الحروف التي تتقاسم الجذر نفسه في مسرد واحد. وهكذا تأتي كل الحروف التي تعني "الإنسان" مجتمعة، مؤكدة وجود مجموعة من الكلمات تـــشير إلى الكـــائن الإنساني، وبشكل مشابه، فإن الكلمات التي تعني السوائل مجموعة سوية لأنها تتقاسم الجـــذر "الماء"، وهكذا دواليك. ووُضعت تحت كل جذر الحروف مرتبة وفق عدد الرموز الإضـــافية للجذر الذي تمتلكه سوية، مما يجعل مسألة تحديد أحرف غير مألوفة أمراً ممكناً. و لم يعمل علماء المعاجم الصينيون بالمبادىء الصوتية إلا في القرن الحالي وتحت تأثير العالم الغربي.

إن التمييز المشهور بين الكلمات "المعجمية" و "الوظيفية"، الذي يعتبر أمراً مسلماً به بوصفه تفريقاً مباشراً بين كلمات ذات معنى معجمي، وكلمات تعمل فقط للتعبير عن علاقات قواعدية، كان في سياقه الأصلي تمييزاً دلالياً بين كلمات تشير إلى مفاهيم موضوعية أو أشياء، وتلك التي كانت ذاتية أساساً وتعبر عن مشاعر الفرد واستجاباته.و تضم هذه الفئة (الأخـــيرة) المعززات، والأدوات الصيغيّة؛ وكذلك فعل (الكون الذي يتمتع بقوة توكيدية اكثر في الصينيه مما هو عليه الحال في الإنجليزية).

وإحدى المعضلات التي مازال العلماء الصينيون يصارعونها منذ أقدم العصور تتعلـــق بكيفية الإشارة إلى اللفظ في ألفبائية يمثل كل حرف فيها كلمة كاملة. أما في دراسة اللهجات

خاصة فإن الافتقار لأي وسيلة من التمثيل الصوتي كان عقبة هامة. ولجأت الأعمال المبكرة إلى المجانسة اللفظية، قائلة إن الحرف X بدا وكأنه Y. وُطوّرت وسيلة أكثر إرضــاء حــوالي 600 ميلادية سميت Fangie وانطوت على تحليل المقطع إلى قطعتين، (أ) الصائت الأول أو الصامت + (ب) بقية المقطع بما في ذلك النغمة. ووجد أن مقطعاً آخر يبدأ بالبداية نفـسها يمثـل (أ)، وآخر ينتهي بالسمات نفسها كـ (ب) يمثل النصف الثاني. وهكذا يمكن تمثيل dong على نحو de hong .وطور النظام فيما بعد ليسمح بالإشارة إلى الظواهر الفوقطعية مثل سمة الحنكية. كان تحليل Fangie بنيوياً في طبيعته: إنه يعمل من خلال علاقات بين الكينونات بدلاً مـن العمـل على الكينونات نفسها، وذلك إجراء يميز الطب الصيني أيضاً. و لم تُطور الـصوتيات النطقيـة الصينية حتى وصلت مبادىء التعليم الهندي الأساسية الصين مع البوذية في القرن السابع ومـا بعده. وقسمت الصوامت التي تقع في البداية إلى خمس فئات وفق مكان النطـق: الـشفتان، واللسان (= السنية) ؛ القواطع الأمامية (= الوقف – الاحتكاكية الـسنية)، والأضـراس (= الحلقيات)، البلعوم (= البلعوميات). ورغم تمييز درجات في الجهر، فـإن الحنكيـة – سمـة لم يتضمنها النظام الهندي – قد تم تجاهلها. ومن الجدير بالذكر، أنه على الرغم من وصول نسخة شائعة من القواعد الهندية في الوقت نفسه، فإنها فشلت في الحصول على مزيد من التطـوير أو الصقل. و لم يول العلماء الصينيون قواعد لغتهم اهتماماً جدّياً إلا بعد وصول القواعد الغربية في نهاية القرن التاسع عشر. وتمثل الإنتاج الشهير لهذا اللقاء بعمل ماجيان زونغ Ma Jian Zhong، بعنوان: Ma Shi Wen Tong (1898)، وهو قواعد حاولت تطبيـق الفئـات العالميـة (أي: اللاتينية) على الصينية – قدر الإمكان. وعندما سمحت التحولات السياسية – في القرن الحـالي فقط – حاول علماء صينيون مثل وانغ لي Wang Li ابتكار بنية قواعديـة أكثـر حـساسية للصينية، وتلك عملية انضم إليها العديد من علماء الغرب، وخاصة في أمريكا.

REFERENCES/المراجع

Where these are simply evaluated within particular approaches they appear in the text above. Where they are more generally useful they are listed below (with brief references in the text).

GENERAL REFERENCES AND FURTHER READING

Items are presented in relation to the places and eras surveyed. A reader's further study is best guided by the titles in each section.

1. General (including works relevant to several sections)

Amirova, T. A., Ol'chovikov, B. A. and V, Rozdestvenskij, Ju. (1980) *Abriss der Geschichte der Linguistik*, transl. from the Russian (1975) by Meier, B. VEB Bibliographisches Institute, Leipzig.

Arens, H. (1st ed. 1955, 2nd ed. 1969) *Sprachwissenschaft: Der Gang ihrer Entwicklung von der Antike bis zur Gegenwart* 2 vols., Athenaum Fischer, Frankfurt.

Asher, R. E. and Henderson, E.J. A. (eds) (1981) *Towards a History of Phonetics*, The University Press, Edinburgh.

Auroux, S. et al. (1985) *La linguistique fantastique*, Joseph Clims, Paris.

Borst, A. (1957-63) *Der Turmbau von Babel: Geschichte der Meinungen uber Ursprung und Vielfalt der Sprachen und Volker* 3 vols., Anton Hiersemann, Stuttgart.

Bynon, T. and Palmer, F. R. (eds) (1986) *Studies in the History of Western Linguistics in Honour of R. H. Robins*, Cambridge University Press, Cambridge.

Foucault, M. (1966) *Les mots et les choses*, Gallimard, Paris, transl. into English as *The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences* (1970), Tavistock, London.

Histoire Epistemologie Langage (1979-).

Historiographia Linguistica (1974-).

Hymes, D. (1974) *Studies in the History of Linguistics: Traditions and Paradigms*, Indiana University Press, Bloomington, Ind.

Kocrner, E. F. K. (1978) *Western Histories of Linguistic Thought: An Annotated Chronological Bibliography 1822-1976*, Studies in the History of Linguistics 11, Benjamins, Amsterdam.
Parret, H. (1976) *History of Linguistic Thought and Contemporary Linguistics*, Walter de Gruyter, Berlin and New York.
Robins, R. H. (1st ed. 1967, 2nd ed. 1979) *A Short History of Linguistics*, Longman, London.
Schmitter, P. (1982) *Untersuchungen Zur Historigraphie der Linguistik*: *Struktur-Methodik* - *theoretische Fundierung*, Tubinger Beitrage zur Linguistik 181, Cunter Narr, Tubingen.
Scbcok, T. A. (1975) *Current Trends in Linguistics 13: Historiography of Linguistics*, 2 vols., Mouton, The Hague.
Todorov, Ts. (1972) 'Le sense des sons', *Poctique* 11:446-62.

II. Greco-Roman Antiquity

Allen, W.S. (1981) 'The Greek contribution to the history of phonetics', in Asher and Henderson (1981): 115-22.
Arens, H. (1984) *Aristotle's Theory of Language and its Tradition*: *Texts from 500 to 1750, Studies in the History of Linguistics 29*, Benjamins, Amsterdam.
Baratin, M. and Desbordes, F. (1981) *L'analyse linguistique dans l'Antiquite classique 1. Les theories*, Klincksieck, Paris.
Collart, J. (1954) *Varran grammairien latin*, Publications de la Faculte des Lettres de l'Universite de Strasbourg 121, Les Belles Lettres, Paris.
Coseriu, E. (1975) *Die Geschichte der Sprachphilosophie von der Antike bis zur Gegenwarl:eine Ubersicht, 1. Von der Antike bis Leibniz*, 2nd ed., Tubinger Beitrage zuur Linguistik 11, Gunter Narr, Tubingen.
Derbolav, J. (1972) *Platons Sprachphiloophie im Kratylos und in den spateren Schriften*, Wissenschaftliche Buchgesellschaft, Darmstadt.
Holtz, L. (1981) *Donat et la tradition de l'enseignement grammatical:etude sur l'Ars Donati et sa diffusion (IVe-IXe siecle) et edition critique* CNRS, Paris.
Housholder, F. W. (1981) *The Syntax of Apollonius Dyscolus translated and with commentary*, Studies in the History of Linguistics 23, Benjamins, Amsterdam.
Hovdhaugen, E. (1982) *Foundations of Western Linguistics: From the Beginning to the End of the First Millennium AD*, Universitesforlaget, Oslo.
Keil, H. (1855-80) *Grammatici Latini,* 7 vol. + suppl., Teubner, Leipzig, repr. 1981, Georg Olms, Hildesheim.
Kemp, A. (1986) '*The Tekhne grammatike* of Dionysius Thrax translated into English', Historiographia Linguistica, 13: 343-63.

Law, V. (1986) 'Late Latin grammars in the early Middle Ages: a typological history', *Historiographia Linguistica*, 13: 365-80.
Mckeon, R. (1946-7) 'Aristotle's conception of language and the arts of language', *Classical Philosophy*, 41: 193-206 and 42: 21-50.
Pinborg, J. (1975) 'Classical Greece', in Sebeok, T. A. (1975):69-126.
Schmidt, R. T. (1979) Die Grammatik der Stoiker, transl. from the Latin (1839) by Hulser, K. bibliography by Egli, U., Schriften zur Linguistik 12, Vieweg, Braunschweig and Wiesbaden.
Steinthal, H. (1st ed. 1863, 2nd ed. 1890-1) *Geschichte der Sprachwissenschaft bei den Griechen und Romern mit besonderer Rucksicht auf die Logik*, Ferdinand Dummler, Berlin, repr. George Olms, Darmstadt 1961.
Uhlig, G. (1883-1910) *Grammatici Graeci*, Teubner, B.G. Leipzig , repr. Georg Olms, Heidelberg (1979).
Wouters, A. (1979) *The Grammatical Papyri Graeco-Roman Egypt: Contribution to the Study of the 'Ars grammatica' in Antiquity*, Verhandeligngen van de Koninklijke Academie voor Wetenschappen, Letteren en Schone Junsten van Belgie, Klasse der Letteren 41.

III. The Middle Ages

Ahlquist, A. (ed.) (1987) *Les premieres grammaries des vernacularies europeens (= Historie Epistemolgie Langage* 9.1).
Bursill-Hall, G. L. (1975) 'The Middle Ages', in Sebeok, T. A. (1975):179-230.
Bursill-Hall, G. L. (1981) *A Census of Medieval Latin Grammatical Manuscripts*, Grammatica Speculartiva 4, Frommann-Holzboog, Stuttgart-bad Cannstatt.
Covington, M. A. (1984) *Syntactic Theory in the High Middle Ages: Modistic Models of Sentence Structure*, Cambridge Studies in Linguistics, 39, University Press, Cambridge.
Covington, M. A. (1986) 'Grammatical theory in the Middle Ages', in Bynon and Palmer (1986): 23-42.
Hunt, R. W. (1980) *Collected Papers on the History of Grammar in the Middle Ages*, Studies in the History of Linguistics, 5, Benjamins, Amsterdam.
Law, V. (1982) *The Insular Latin Grammarians*, Studies in Celtic History 3, The Boydell Press, Woodbridge.
Law, V. (1985) 'Linguistics in the earlier Middle Ages: the Insular and Carolinian grammarians', *Transactions of the philosophical Society*: 171-93.
Pinborg, J. (1967) *Die Entwicklug der Sprachtheorie im Mittelater*, Aschendorff, Munster and Frost-Hansen, Copenhagen.
Rosier, I. (1983) *La grammaire speculative des Modistes*, Presses Universitaires de Lille, Lille.

IV. Since the Renaissance

Aarsleff, H. (1976, repr. with corrections 1983) *The Study of Language in England, 1780-1860* University of Minnesota, Minneapolis and Athlone, London.

Aarsleff, H. (1982) *From Locke to Saussure: Essays on the Study of Language and Intellectual History*, Athlone, London.

Alston, R. C. (1965-73) *A Bibliography of the English Language from the Invention of Printing to the Year 1800*, 11 vols., E. J. Arnold, Leeds and Bradford.

Anthropological Linguistics 5.1. (1963) *History of Linguistics*.

Apel, K. O. (1963) *Die Idee der Sprache in der Tradition des Humanismus von Dante bis Vico*, Archiv fur Begriffsgeschichte 8, Bouvier, Bonn.

Benfey, Th. (1869) *Geschichte der Sprachwissenschaft und orientalischen Philologie in Deutschland seit dem Anfange des 19. Jahrhumderts mit einem Ruchblick auf die fruheren Zeiten*, Geschichte der Wissenschaften in Deutschland, Neuere Zeit 8, Cotta, Munich, repr. 1965.

Beyer, A. (1981) *Deutsche Einflusse auf die englische Sprachwissenschaft im 19. Jahrjundert*, Goppinger Arbeiten zur Germanistik No. 324, Kummerle, Goppingen.

Brunot, F. (1966-) *Histoire de la langue francaise des origines a nos jours*, revised edition, Armand Colin, Paris.

Carvalhao, Buescu, M. (1983) *O estudo das linguas exoticas no seculo XVI*, Biblioteca breve, Seire pensamento e ciencia 71, Lisbon.

Carvalhao, Buescu, M. (1983) *Babel ou a ruptura do signo: a gramatica e os grammaticos portugueses do seculo XVI*, Imprensa Nacional , Libson.

Dobson, E. J. (1st ed. 1957, 2nd. ed. (1968) *English Pronunciation 1500-1700 I: Survey of the Sources*, Barendon Press, Oxford.

Dubois, C. -G (1970) *Mythe et langage au seizieme siecle*, Ducros, Bordeaux.

Formigri, L. (1970) *Linguistica ed empirismo nel Seicento inglese*, Laterza, Bari.

Gipper, H. and P. Schmitter (1979) *Sprachwissenschaft und Sprachphilosophie im Zeitalter der Romantik: ein Beotrag zur Historiographie der Linguistik*, Tubinger Beitrage zur Linguistik 123, Cunter Narr, Tubingen (revised version of their article in Sebeok (1975):481-606).

Hankamer, P. (1927) *Die Sprache, ihr Begriff und ihre Deutung im sechzenhnten und siebzehnten Jahrhundert: ein Beitrag zur Frage der literatuhistorischen Gliederung des Zeitraums*, Bonn, repr. 1965, Georg Olms, Hidesheim.

Hanzeli, V. E. (1969) Missionary *Linguistics in New France: A study of 17th and 18th Century Descriptions of American Indian Languages*, Mouton, The Hague.

Hymes, D. and J. Fought (1981) *American Structuralism*, Mouton, The Hague (revised version of their article in Sebeok (1975): 903-1176).

Jankowsky, K. R. (1972) *The Neogrammarians: A Re-evaluation of their Place in the Development of Linguistic Science*, Mouton, The Hague.
Jellinck, M. H. (1913-14) *Geschichte der neuhochdeutschen Grammatik von den Anfangen bis auf Adlung*, 2 vols., Carl Winter, Heidelberg.
Kayser, W. (1930) Bohmes Natursprachenlehre und ihre Grundlagen' Euphorion, 31: 521-62, transl. into French by J. Launay, 'La doctrine du langage naturel chez Jacob Bochme et ses sources', *Poetique*, 11 (1972): 337-66.
Knowlson, J. (1975) *Universal Language Schemes in England and France 1600-1800*, University of Toronto Press, Toronto and Buffalo.
Lehmann, W. P. (1967) *A Reader in 19th century Historical Indo-European Linguistics*, Indiana University Press, Bloomington, Ind.
Lepschy, G. (1970) *A Survey of Structural Linguistics*, Andre Deutsch, London.
Lepschy, G. (1986) 'European Linguistics in the 20th century', in Bynon and Palmer (1986): 189-201.
Michael, I. (1970) *English Grammatical Categories and the Tradition to 1800*, Cambridge University Press, Cambridge.
Muller, J. C. (1986) Early stages of language comparison from Sassetti to Sir William Jones (1786)', *Cratylus* 31:1-31.
Padley, G. A. (1976) *Grammatical Theory in Western Europe 1500-1700: the Latin Tradition*, Cambridge University Press, Cambridge.
Padley, G. A. (1st ed. 1985, 2nd ed. 1988) *Grammatical Theory in Western Europe 1500-1700: Trends in Vernacular Grammar* I and II, Cambridge University Press, Cambridge
Pedersen, H. (1931) *The Discovery of Language: Linguistic Science in the 19th Century*, transl. from the Danish (1924) by Spargo, J. W. Harvard University Press, Cambridge, Mass. , repr. 1962, Indiana University Press, Bloomington.
Percival, W. K. (1975) 'The grammatical tradition and the rise of the vernaculars', in Sebeck, T. A. (1975): 231-75.
Percival, W. K. (1984) 'The reception of Hebrew in 16th century Europe: the impact of the Cabbala', *Historiographia Linguistica* 11: 21-38.
Ricken, U. (n.d.) *Grammaire et philosophie au siecle des Lumieres*, Publications de l'Universite de Lille III, Lille.
Rousseau, J. (1984) 'La racine arabe et son traitement par les grammairiens europeens (1505-1831)', *Bulletin de la Societe de Linguistique de Paris* 79:285-321.
Salmon, V. (1979) *The Study of Language in 17th Century England*, Studies in the History of Linguistics 17, Benjamins, Amsterdam.
Salmon, V. (1986) 'Effort and achievement in 17th century British linguistics', in Bynon and Palmer (1986): 69-95.
Stengel, E. (1976) *Chronologisches Verzeichnis franzosicher Grammatiken vom Ende des 14. bis zum Ausgange de 18. Jahrahunderts, nebst Angabe der*

bisher crmittelten Fundorte dersellben, new ed. with supplement by H. J. Niederehe, Studies in the History of linguistics 8, Benjamins, Amsterdam.
Tavioni, M. ed. (1st ed. 1987, 2nd ed. 1988) *Renaissance Linguistics Archive 1350-1700: A First (Second) Print-Out from the Secondary-Sources Data-Base*, Istituto di Studi Rinasci-mentali, Ferrara.
Trabalza, C. (1908) *Storia della grammatica italiana*, Ulrico Hiepli, Milan, repr. 1963, Arnaldo Ferrari, Bologna.
Verburg, P. A. (1952) *Taal en Func tionaliteit: een historisch-critische studie over de opvattingen aangaande de functies der taal vanaf de prae-hunanisctische phiologie van Orleans tot de rationalistische linguistiek van Bopp*, H. Veenman & Zonen, Wageningen.
Worth, D. S. (1983)*The Origins of Russian Grammar: Notes on the State of Russian Philology before the Advent of Printed Grammars*, Salvica, Columbus, Ohio.

VI. Non-European Traditions

Armenia

Adontz, N. (1970) *Denys de Thrace et les commetateurs armeniens*, transl. from the Russian (1915) by R. Hotterbeex, Imprimerie Orientaliste, Louvain.

Mesopotamia

Black, J. (1984) *Sumerian Grammar in Babylonian Theory*, Studia Pohl: Series Maior 12, Biblical Institute, Rome.

Persia

Windfuhr, G. L. (1979) *Persian Grammar: History and State of its Study*, Trends in Linguistics: State -of-the-Art Reports 12, Mouton, The Hague.

Judaism

Bacher, W. (1975) *Die angange der herbraischen Grammatik und Die hebraische Sprachwissen-schaft vom 10.bis zum 16. Jahrhundert*, Studies in the History of Linguistics 4, Benjamins, Amsterdam(first published 1895 and 1892).
Hirschfeld, H. (1926) *Literary History of Hebrew Grammarians and Lexicographers Accompanied by Unpublished Texts*, Oxford University Press, Oxford.
Swiggers, P. (1979) 'L'histoire de la grammaire hebraique jusqu'au XVIe siccle, *Orientalia Lovaniensia Persiodica* 10:183-93.

Islam

Diem, W. (1983) ‘Sckundarliteratur zur cinheimischen arabischen Grammatik schreibung’, in Vecrsteegh C. H. M., Koerner, K. and Nicderche, H. J. (eds), *The History of Linguistics in the Near East*, Studies in the History of Linguistics 28, Benjamins, Amsterdam.
Owens, J. (1988) *The Foundations of Grammar: An Introduction to Medieval Arabic Grammatical Theory*, Studies in the History of the Language Sciences 45, Benjamins, Amsterdam.
Scmann, Kh.I (1968) *Linguistics in the Middle Ages: Phonetic Studies in Early Islam*, E. J. Brill Leiden.
Sczgin, F. (1984) *Geschichte des arabischen Schrifttums 9. Grammatik bis c.430 H.*, E. J. Brill, Leiden.
Versteegh, C.H.M. (1977) *Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking* , Studies in Semitic Languages and Linguistics 7, E. J. Brill, Leiden.

India

Allen, W. S. (1953) *Phonetics in Ancient India*, London Oriental Series 1, Oxford University Press, London.
Cardona, G. (1976) *Panini: A Survey of Research*, Mouton, The Hague.
Nitti-Dolci, L. (1972) *The Prakrita Grammarian*, translated from the French (1938) by P. Jha, Motilal Banarsidass, Delhi.
Raja, K. Kunjunni (1963) *Indian Theories of Meaning*, The Adyar Library Series 91, Madras.
Scharfe, H. (1977) *A History of Indian Literature 5.2: Grammatical Literature*, Otto Harrassowitz, Wiesbaden.
Staal, J. F. (1972) *A Reader on the Sanskrit Grammarians*, The MIT Press, Cambridge, Mass. and London.

The Far East

Halliday, M.A. K. (1981) ‘The origin and early development of Chinese phonological theory’, in Asher and Henderson (1981) : 123-40
Miller, R. A. (1975) ‘the Far East’, in Sebeok, T. A. (1975): 1213-64.
Miller, R. A. (1976) *Studies in the Grammatical Tradition in Tibet*, Studies in the History of Linguistics 6, Benjamins, Amsterdam.

